

الوشم الأخضر

بقلم

هدى جاد

إهـــــــداء2005

أ/إبراهيم منصور غنيم

القاهرة

الكتاب الماسى



القسم الأول



كأنها لوحة ... سماء صافية واسعة مكشـوفة يقل سـحابها وضبابها وتكثر شمسها ونورها ، أما البيت المتواضع الذى تشير اليه يد لها أنامل راوية فهو ليس من اللبن كما هو معتاد فى ريفنا الحبيب بل أرقى قليلا . من الطوب الأحمر .

القرية لاتبعد كثيرا عن البندر ، الطريق اليه – أى الى البندر – اما بالركائب واما بالسيارة وهو شىء يقل حدوثه .

صاحب البيت فلاح طويل عريض يرتدى الملابس البلديـة ويتعمم بعمامة أنيقة ، مليح الوجه لطيف القسمات يميزه شارب فاحم كالجناحين وعيون واسعة كحيلة سوداء أورثت بعدها بنات وحفيدات عيونا صـنعت بالكثيرين .. كثيرا !

زوجه امرأة غضة بضة قصيرة القامة ممتلئة ، تراهن الكثيرون على أنها خالية من العظام أو على أقصى تقدير عظامها فى أمكنة بعيدة لاتدركها العين ولا تحسها الانامل .

بيت سعيد ، فى ذاك الوقت لعله عام ١٩٠٠ .

لنرجع ثانية الى البيت : هو من طابقـين : الاول : عدة حجرات متراصة تكون دائرة ، نقطة ارتكازها منور ، لندخل أولا من الباب. على يمينه مندرة سلمها من درجتين لاستضافة الزوار الرجال ، وأخرى أمامهـا تماما على اليسار للترحيب بالنوع الآخر ، الزائرات .

حجرة أمامية لخزين الغلال ملاصقة لها حجرة أخرى لخزين البيت ، وعلى اتجاه الداخل الى اليمين حجرتان متجاورتان للنوم والراحة ، الحقول الخضراء التى يتباين اخضرارها بين الفاتح والداكن ، تدركها العين – على مدى أوسع – من الطابق الآخر الذى يشبه الطابق الاول تماما ، لولا أن بعض حجراته عارية تقريبـا من الأثاث الا من بعض قطع الحصير التى يستعاض عن الأسرة بها ويفضل النوم عليها صيفا .

آسفة ان كنت قد أشعرتك بطريق غير مباشر بشيء من الدوار ، فقد انتقلت بك من السماء الى الأرض ومن الطابق العلوى الى الطابق الاول ٠

يدفعنى الى ذلك أننا سنعيش فترة ليست بالقصيرة فى هذا البيت ٠

صاحبه السيد يوسف .. تاجر ، أحيانا يشترى حدائق ممتلئة بالفواكه ثم يبيعها ـ بشطارته ـ الى آخر فيكسب مالا حلالا ، وكثيرا ما يزرع أرضه قطنا مصريا ويبيعه للارتزاق ، وهكذا .

على ناصية ـ الحارة ـ فلاح آخر لايقل عنه طولا وعرضا ووسامة ، لكنه يبزه فى ماله ، استأجر بيتا منه على الترعة (للحظ) يختار من يشاء من جميلات البلدة ويصطفيها هناك ، وصاحبنا السيد يوسف يرى ولا يرضى ٠

والنخوة لاتنقصه فكان يتحرش به ليلا ويسمعه كلاما لاترتاح اليه الأذن ٠ لعلها الغيرة على الفضيلة أو على النساء ٠

لكن حدث أن تحول تفكير السيد يوسف ـ بعض الشيء ـ الى زوجه ، فقد بشرته بحمل جديد ، وهنا قال فى نفسه : يارب ابقه وليكن طفلا أو طفلة واحدة ٠ فالاجهاض يلازمها دائما ، كم يحز فى نفسى أن أمنح حبى وحنانى أبناء الغير حتى اذا ما نموا نسونى !!

ثم تمضى الايام والأشهر ، وتكتمل مراحل الحمل ويقترب موعد الوضع ، فلا يفارق يوسف زوجه حتى تحين اللحظة الحاسمة ، ويرزق طفلة ضعيفة البنية ، لكن جمالها فريد حتى وهى فى طيات اللفائف ٠

رزق البنت باثنين ، هكذا كان يردد « يوسف » دائما ٠

راجت تجارته ونسى فى غمرة مكاسبه غريمه الذى يقضى معظم أمسياته فى بيت يطل على الترعة ٠

وشهدت « عائشة » الطفلة السقيمة الحلوة جولات أبيها فى البلدان المجاورة وعرفت أشجار الفاكهة التى كان يتاجر فيها ٠

وفى الليل تستكين فى حضن أمها الدافىء الغض ، البض ٠

وعندما بلغت السنة الخامسة من عمرها بدأت أمها تنصرف عنها ٠ اذ كان هناك حمل جديد فى الطريق ٠

وقد قال يوسف فى ذلك : يبدو أن قطيعا جديدا سيشرفنى لكن هل سينسينى هذا حبى المفرط للحبيبة « عائشة » ؟

قالت « عائشة » فيما بعد بسنوات طويلة : اذكر الليلة كالحلم : أمى فى فراشها تنازع وتناضل (والقابلة) بين يديها وتحت ارجلهـا تستحثها وتهون عليها — لم يبق الا القليل أبتها العزيزة الغالية — وأبوها هناك فى (الحوش الخلفى) يروح ويجىء، ويجىء ويروح، ويتنهد ويخاطب السماء وعائشة بين الانين حائرة ضالة قلقة حتى استقر بها المقام فى الحجرة التى تتمدد فيها أمها. ثم يعلو صراخ ولطم تسمعهما من القابلة.

ماتت الام مع الطفل الوليد بسبب عسر الولادة !

الحزن يخيم على البيت المميز ذى الطوب الأحمر .

وتنمو لحية السيد يوسف وتقل مشاويره للبلدان المجاورة وينسى تماما جاره الغزل .

ويتحول قلبا وقالبا الى « عائشة » يطعمها بيديه ويسقيهـا ويغير ملابسها وينام فى حضنها البرىء البارد ، وتلف هى ذراعيها حول رقبته الغليظة وتحتمى يشاربه الكث الخشن، وعندما تصرخ فى الليل منادية أمها يقول مهدئا : عندما يطلع النهار سآخذك الى البندر لأشترى لك الحلويات وتشاهدين الأراجوز ، فتهدأ قليلا قليلا ، ويخفت صوتها بين النشيج المتقطع والتنهدات الوجلة .

عم « عبده » رجل أسمر لوحته شمس القرية ، جسمه ضئيل ووجهه لايسعك عندما تلمحه الا أن تضحك بملء فمك ، لماذا ؟! لا أحد يدرى .

وعم « عبده » هذا (ابن الايه) له زوجة غاية فى الجمال أنجب منها ثلاث بنات أجمل من أمهن وكلهن حبيسات الدار.

فلما سمع بفجيعة السيد يوسف بفقد زوجه العاقلة المطيعة تطوع بزيارته كل مساء — تقريبا — لتسليته ومداعبته ، وكان لا يخرج من عند « يوسف » الا عندما يلمح الابتسامة تطل من تحت شاربه ، فيخرج من عنده محملا ببعض خزين البيت مرتاح البال .

وقال له فى مرة : يا سيد يوسف ، الدار اذا ما خلت من النساء أصبحت قاتمة ثم «عائشة» الصغيرة تحتاج لرعاية امرأة ، سأتطوع باحضار ابنتى الصغرى « محاسن » لخدمتها ، والله لم تخرج ولا واحدة من بناتى من الدار الا للضرورة، وعلى أية حال لولا غلاوتك عندى وظروف « عائشة » لربما ترددت .

ويفكر « يوسف » مليا فى قول « عبده » ويستصوبه فيرحب بالفكرة ٠

وتجيء محاسن فى العشرين من عمرها شقراء ــ وهو أمر نادر ــ ويبهت السيد يوسف لمرآها فقد كانت مليحة حقا ٠

ولا تفوته النكتة فيسر فى أذن « عبده » همسا : هيه ٠ من أين لك زرقة العينين واصفرار الشعر وانت ذو الوجه الهباب والعيون الوارمة ؟

ويتصنع « عبده » الغضب ويقول : والله يا شيخ كانت أمى تقول لى اننى وأنا طفل ــ كانت عيونى زرقاء وشعرى ذهبيا ٠٠ آه من الفقر وبلاويه !

ويجيبه السيد يوسف بضربة على قفاه مداعبا قائلا : خيبك الله !

تنتقل الأسرة المكونة من فردين وثالث ــ احتياطى ــ الى حياة جديدة متغيرة ، هذا التغير كان أكثر وضوحا بالنسبة لـ « عائشة » ٠

تستيقظ فى الصباح وتجالس أباها وتشاطره لقمة الافطار ، أما « محاسن » فهى تتنقل من حجرة الى أخرى لتكنس الدار وتسقى الطير وتعلف البهائم ٠

نظرات السيد يوسف تلاحق «محاسن» وأحيانا تستقر على الأرداف والضفائر الذهبية المنسابة بهمجية على صدرها الكروى البلورى ، أما ساقاها الملفوفتان ــ لفة بلدى ــ فانه يلمحهما عندما تتهيأ لتنظيف ما تحت الكنب ٠

و « محاسن » ترعى « عائشة » بعناية : فهى اذا ما حاولت التهرب من وجبة الغداء ــ وهى السقيمة الرقيقة ــ تلح عليها «محاسن» بصبر جميل حتى تفلح فى النهاية فى أن تلتهم الصغيرة كل ما أمامها ، كل هذا أمام السيد يوسف الذى يهز رأسه مرات متوالية على حنان لا يختلف عن حنان الأمومة من واحدة ليست أما ، والشيطان شاطر ٠ وفراش السيد يوسف لا تنجح عائشة فى تدفئته بجناحيها الخاليين من الريش الناعم الكثيف !

و « محاسن » ــ الله يجازيها ــ مليحة أكثر مما يجب وصبية فى عز الصبا ٠

حادث طبيعى بل ويجب أن يكون طبيعيا أن تمتد يد « يوسف »

التى تشبه ـ الحف ـ لتسوى ضفائر « محاسن » وهى نصف جالسة ، فقد لمست أطرافها الارض المتربة ·

وتقفز « محاسن » باضطراب وخوف يشعلان لهيب « يوسف » المستقر المحزون فيطاردها ولا تجد « محاسن » ملجأ تحتمى به الا « عائشة » ·

وهنا تبدأ العاصفة فيالاستقرار وينسحب السيد يوسف الى ركنه متمتما : اللهم « اخزيك » يا شيطان !

ع الريق يقرع « عبده » الباب ويصبح على صاحب الدار الذىيقرئه السلام ، ويشاهد الاثنان ينتحيان ركنا من الطابق العلوى ، ويتنهد « يوسف » ثم ينسحب ركن فمه ناحية جاره وترتسم ابتسامة هلالية ، أما عبده فينفتح فمه على آخره وتطل أسنانه المفلوجة المبعثرة وينحنى على يد يوسف مقبلا ·

نعم ، تماما كما يتبادر الى الذهن ، مرة ثانية حادث طبيعى مشروع على سنة الله ورسوله ·

عائشة تخدم وترعى ، أما يوسف فسيخدم أيضا ويرعى و ···

صباح جديد مشرق جدا للسيد يوسف ·

وبعض الاشراق لـ « عائشة » ، تجد نفسها بعد لقمة الصباح ـ كدأبها ـ على ناصية الحارة تلاعب الصبية والبنات « عساكر وحرامية » ثم تثوب الى البيت تبحث عن أبيها فلا تجده ، وتبحث عن خالتها «محاسن» فلا تجدها .

لكنها عندما تعثر عليهما تجدهما معا !

وتتسخ ملابسها ويتعفر شعرها الفاحم وهو شىء لم تتعوده ، فتلجأ الى خالتها التى تنهرها دائما ـ حينما يكون السيديوسف خارج الدار فتنزوى الصغيرة فى ركن وتلاعب قطتها وتشكو لها وبخاصة عندما تلمحها مستكينة وهى ترضع صغارها ·

شىء جديد ، شىء جديد تحسه « عائشة » السقيمة ، التى تشبعها لقمة حنون ، أن تتلمظ أمعاؤها من الجوع ، وحجة خالتها فى ذلك : انتظرى حتى يحين موعد مجىء أبيك !·

ـ مسروعة على ايه ؟

وحول الطبلية يلتف الثـلاثة وأحيانا يتغير المنظر حينمـا يجلس « يوسف » ابنته على ركبتيه وبنظرة حادة من «محاسن» واهتزاز خصرها (ولوية) رقبتها تتدحرج عائشة من (حجر أبيها) وينكس « يوسف » رأسه ٠

ويتكرر التصرف نفسه عنـدما يحشو « يوسف » فم ابنتـه ببعض اللقيمات ٠

شيء آخر استجد بالدار وهو ضرب محاسن لعائشة وشـد الشعر والركل بالقدم اذا ما بدا من عائشة أى تصرف غير لائق وأحيانا يكون لائقا !٠

وفى أكثر الأوقات تهرب عائشة الى جارتهـا الحاجة حسنية لتلاعب ابنتها (سيدة) وتتـذوق طعم الفطير الذى افتقدته ونسيته تقريبـا منذ وفاة أمها ٠

ليس هذا فحسب ، بل الضيف أو الضيفة الجديدة التى ستشرفهم بمجيئها عندما يتم حمل الخالة محاسن هو ما كانت تخشاه الحاجة حسنية، وكثيرا بل وكثيرا جدا ما همست فى أذن محاسن ناصحة وهى تقول لها:

ـ عائشة طفلة هادئة يتيمة لا تحتاج منك الا الى كلمة حلوة وبعض الرعاية ٠

لماذا تحولت بعد أن أصبحت زوجة أبيها ؟

وترد محاسن بدلال مشوب بعصبية وكبرياء :

ـ تحمد الله على أننى أرعاها وهل أنا ملتزمة ؟

وتستنكر الجارة الحنون قولها قائلة :

ـ هل نسيت أنك لم تجيئى الدار الا لتربيتها ؟

وتضحك محاسن هازئة وتقول :

ـ وأنت ، هل نسيت عمر أبيها الذى يكبر أبى ، كل شبان البلدة يجرون ورائى وتقاطعها الحاجة :

ـ لكنهم ليسوا تجار قطن اوفواكه مثله ثم طيبته وسمعته، والرجل لا يعيبه سوى طبعه وجيبه ٠

وتنهى محاسن المناقشة قائلة :

ــ هل اشتكت لك منى (البت عائشة) ؟ واحدة غيرى لربما تصرفت معها تصرفا آخر !

قالت الحاجة حسنية لابنها الجدع الطيب حامد عصر يوم هادىء :

ــ خلاص أصبح السيد يوسف أبا لبنات فقد رزق طفلة جديدة اسماها عنايات لهفى عليك يا عائشة !

ثم تقرب فمها من أذن ابنها قائلة :

ــ هل حقيقة هذه الاشاعة ؟
ويرد بكبرياء الفلاح :

ــ دعينا من سير الناس !

عنايات ، قطعــا جميلة بل وأكثر من جميلة ، الأب وسيم ، وجيه والام أدارت رءوس شباب البلدة !

ولبن الأم صبى أضفى على البنت صحة وعافية ٠

ويكثر انزواء عائشة ويزداد وزن عنايات ٠

وتنفث محاسن عطرها الياسمينى لابنة بطنها وتكثر من اعطاء ابنة غريمتها خبزا جافا وجبنا « قريشا » !

وفى يوم جاءتهم الحــاجة حسنية زائرة وشــاهدت عائشة بجانب الفرن تمسك بيدها الصغيرة الدقيقة الخجلى قطعة خبز جافة جفاف الخشب تقرضها مع جبن القريش ، ولما التفتت ناحية أمها الروحية الحاجة حسنية مع التفاتتها ولهفتها وقعت منها قطعة الجبن وامتزجت بتراب الفــرن الرمادى ، ولمحتها خالتها محاسن ، فانقضت عليهــا كالمسعورة وأشبعتها ضربا وقرصا والبنية تبكى وتصرخ وتولول :

ــ حرمت يا خالتى ، تبت يا خالتى فى عرضك يا خالة حسنية ، قولى لها أن ترحمنى !

وغلى الدم فى عروق الحاجة وقد أحست أنها بطريقة غير مباشرة ــ قد تسببت للصغيرة فى آلام جديدة ٠

وجرت بدورها ناحية الطفلة عنايات فوجدتها تتلذذ بالتهــام قطعة

من الفطير المغمور بعسل النحل ، فخطفت منها ما تاكله ومزجتــه بتراب الفرن وقالت بوحشية :

ـ حرام عليك يا فاجرة هذا الظلم ، عائشة يزداد هزالهـا وابنتك تزداد سمنة حتى تكاد تتدحرج كانها الكرة وكل هذا من خير ولى نعمتك يوسف !

فامسكت محاسن بشعر المرأة وطرحتها أرضا وبصقت عليها قائلة :

ـ تقولين لى يا فاجرة لماذا تغرن منى ؟ هه لان زوجك يمتدحنى .

وقامت الحاجة بعد أن هزلت من الضرب .

ـ لا ، ليس زوجي العفيف بل الآخر يماثلك فجرا .

ثم تهدأ العاصفة فجأة لان السيد (يوسف) وجد بينهما دون ان تحسا به .

وترقبه محاسن وقد اربد وجهه وجحظت عيناه ثم أمسك بتلابيب الحاجة حسنية ، وجرها من يدها الى المندرة واشار اليها ان تجلس وفاجأها قائلا :

ـ حالا ، وبدون ابطاء اخبريني عن اسمه ؟

ـ من ، من تعنى ؟

وبصوت بارد قال :

ـ الذى تتهمين محاسن معه .

وتلجلج صوتها وابتلعت ريقها بصعوبة وقد احست بانهـا صنعت اكثر مما كانت تريد ، ولم يسعفها القول فسكتت .

وهنا قرب يوسف وجهه الصبوح منها كانه يطيب خاطرها بعـد ان احس بانه كهربها :

ـ لاحظت تصرفات غير عادية تجرى فى هذا البيت ، هيه ، تكلمى لعلك تصنعين لى جميلا .

وصرخت المرأة :

ـ لا ، لن يكون هذا عن طريقى .

وبادلها الصراخ قائلا :

– اذن لماذا تفوهت بهذه التهم ؟

ودون أن تعي وجدت نفسها تقول :

– لأخيفها وأهددها حتى تخفف من ظلمها للصغيرة اليتيمة التى فقدت أمها ومن ثم فقدتك !

وينكس رأسه ويسمع الضربات المتوالية على رأسه والطنين الذى يكاد يسد سمعه ويترنم : الغالية عائشة .

أحيانا ، بل وكثيرا عندما يحتدم الغضب فى أنفسنا ولا نستطيع ازاءه تحمله يتخذ صورة الهدوء الذى يتحول الى ذهول من هول المصاب .

وفى هدوئه الذاهل يقول لها : اذهبى الى بيتك أيتها المرأة الطيبة.

القرية تغلى ، والأفواه تتسع ، والرءوس تتقارب، والنسوة شامتات حاقدات على الكبيرة وعاطفات على الصغيرة اليتيمة .

وهناك على ناصية – الحارة – الفلاح الآخر الذى لا يقل عنه طولا وعرضا ووسامة لكنه يبزه فى ماله ومنه استأجربيتا على الترعة (للحظ) يختار من يشاء من جميلات البلدة ويصطفيها هناك .

يرى شبح رجل –فى المساء– يطوف حول البيت حتى مطلع الفجر، حدث هذا أكثر من أسبوع وفى خاتمته وبداية الأسبوع الجديد تسمع رصاصة ورصاصتين وثلاثا .

البيت المميز ذو الطوب الاحمر تحتله امرأة يافعة تحمل على كتفها طفلة سمينة ترنو اليهما صغيرة أخرى اكتمل يتمها .

وبعد أيام قليلة تنتقل الصغيرة الى دار أخرى غريبة عنها لكنها تتميز بأحضان دافئة وعيون حانية وصدور رحيمة .

تقول الحاجة حسنية لزوجها : لولاى ما حدث ما حدث .

ويرد قائلا : كل البلدة كانت تتكلم .

الحاجة حسنية : أعرف لكننى السبب المباشر .

الرجل مدمدما : قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا .

الحاجة : هيه ! والله قدم البنت خير .

ويتهلل وجه رجلها السمح ويقـــول : شريكي المخالف صالحنى وازداد كسبنا من كان يصدق ؟

الزوجة وهى تقوم لتجهيز العشاء: ربنا يحميها ويصبر والدها الذى فى السجن ٠

اتخذت عائشة من صديقتها سيدة ابنة حسنية أختا ثانية شاطرتها الفراش والطبلية ورافقتها فى الحارة ولاعبتها (السيجة) ٠

حتى فى أيام الأعياد كانتا ترتديانالقماش بلون واحد (والتفصيلة) واحدة ٠

وكانت تتشجع أحيانا فتسأل خالتها حسنية عن أبيها ولماذا لاتراه فتقول لها المرأة الطيبة : تعلمين أنه يتاجر فى الفاكهة ٠

وتكمل لها الطفلة اختلاقها فتقول : وكان يأخذنى معه .

ـ لكنه فى هذه المرة سافر الى الصعيد ٠

ـ وهل سيطول غيابه ؟

ـ الله أعلم ٠

دنيا عائشة لم يكن فيها الا الحاجة حسنية وابنتها سيدة والاخيرة التى تكاد تماثلها فى العمر تقترح عليهما أن تذهبا هناك الى الغجرية التى فى أطراف البـلدة لتدق لهمـا الوشم الأخضر ، سـيدة تحلم بوردة على رسغها وتغرى عائشـة (بطبع حسن) على الجبهـة ، وتقول لهمـا الحاجة حسنية ـ حينما ترجعان الى الدار بعد المغرب ـ والله عال اذن فقد نفذت غرضك يا بنت ! غير معقول أن تكون عائشة صاحبة الفكرة ٠ من أين لك بسداد الاتعاب ؟

ثم تلتفت بطريقة تلقائية لتشاهد (مشنة العيش) هابطة ، وتقول الآن فهمت كل شىء، تعالى يا لعينة، وتغطى عائشة وجهها بيديها ثم تنقلهما الى اذنيها حينما تسمع طرقعة الأقلام التى تنزل على«سيدة» المحصورة بين يدى أمها ، لكنها (عائشة) تذهل فى صباح اليوم التالى عندما تلمح نظرات الحـاجة الحنون ثم وهى تعقب على الحـادث قائلة : والله وعملتوها ياولاد الايه ، الوشم حيأكل من ذراعك (حتة) يا سيدة ٠

يقول زوج الحاجة حسنية همسا وهو جالس القرفصاء أمام باب الدار على يمينه قلة مملوءة ماء مرطبا بالنعناع :

ـ وآخرتها يا ولية فى البت عائشة ؟

ـ خير ، يا حاج ماذا تعنى ؟

ـ هيه يا مربى فى غير ولدك يابانى فى غير ملكك !

وترد جادة :

ـ هل تضايقنا ؟ تضايقك عائشة ؟

ويطوح رأسه الذى وخطه بعض الشيب ويقول :

ـ لا أعنى شيئا بالتمام لكن ما ذنبنا نحن ؟ ألن يجىء عليها يوم تصبح فيه عروسا تحتاج لجهاز ومصروفات ، ليس لها عم أو خال ، والام ماتت • وأبوها فى السجن ، اذن فقد أصبحت دارنا ملجأ لليتامى •

وتستدير الحاجة ناحيته رابتة على ذراعه مهدئة :

ـ اللى يعمل الخير يلقاه •

ويفاجئها بقيامه مدمدما :

ـ الذى يسمع كلام النساء يستحق ما يحدث له ، لن أسكت ولابد أن أبت فى الأمر ، واليوم خير من الغد •

يجىء عم نجيب الخولى ، صديق الحاج كعادته يتناول العشاء ويختمه بكوب الشاى الداكن •

لكن الجديد أن عائشة ترقبهما أيضا حينما تضبطهما ينظران اليها بل ويطيلان النظر : لماذا ؟ أبسبب الوشم اللعين ؟ يجوز •

وتتبدد الحيرة حينما تهمس الحاجة فى أذنها قائلة :

ـ ألم تسمعى عن مصر ؟ ستأكلين الفاكهة الكثيرة وترتدين الملابس الملونة أجمل من ثوب خديجة الأحمر الذى أعجبك ، أما عن الحلويات فستشربين الماء بكثرةبعد أن تكثرى من تناولها، والشرائط الملونةستحلين بها ضفائر شعرك الغزيرة و •••

وتتسع عينا عائشة ويزداد سوادهما وبياضهما ، وتمشى خطوات

بطيئة الى الخلف ، وتضع يدها على فمها الذى انفتح قليلا ثم ترتعش خدودها ويختلج ذقنها وتلمع عيناها ثم تشيح بوجهها ٠

كلما تعلقت بفرد اما أن يهجرها أو تهجره لماذا ؟ لماذا ؟

وتكمل الحاجة حديثها الذى لم تلتقط منه عائشة الا القليل الهام مثل عائلة فريد باشا وتركب القطار ، وتأخذ قروشا فى يدها لتشترى الحلوى والحاجة ستزورها هناك فى مصر ٠

ولم تسمع الباقى فقد جرت مذعورة تماما كالقطة البيضاء المرقطة ببقع سوداء ٠ حينما يطاردها الصبية فى الحارة محاولين امساك ذيلها ٠

وتتذكر منظر سيدة فى (حجر أمها) وهى تتحسس جسمها وتنظف شعرها بأناملها ثم وهى تلاعبها ، وأحيانا تطعمها بعض المأكولات كالقشدة ٠

ولما تلمحهما عائشة ـ خجلى ـ تبرق عيناها فترتبك الحاجة ثم تمد لها يدها أن تعالى وشاركينا فى لقيمات القشدة ٠

الحاجة حسنية ـ طيبة حنون ، لكنها تختلف عن أمها وأبيها وهى لا تغدق عليها المأكولات الا عندما تضبطهما ـ هى وابنتها ٠

أما الحاج فهو ينظر اليها شزرا ، لكنه لا يؤذيها كخالتها محاسن ٠ ترى أين هى وشقيقتها عنايات ولماذا لا تزورها ؟ كم هى ألغاز لا تقدر على حلها !

ويمر بخاطرها أيضا بعض الليالى التى باتتها جائعة ٠

لكنها مرة تشجعت وهمست لسيدة بأنها تريد بعض اللقيمات ، ولكن «سيدة» التى تشاركها فى النوم على الحصير تلكزها فى جنبها وتقول :
ـ نامى ولتدعينى أنام !

قد تكون مصر ملأى بالخيرات ، وأبوها ألن يعود ؟ ولماذا ؟٠ عندما يجىء ذكره وتكون موجودة مصادفة تخف الاصوات ٠ ثم تنقطع ٠

آه لو تستطيع أن تفهم ! والاجابات دائما عندما تكبرين سوف تعرفين كل شىء فمتى تكبر ؟ متى ؟



القسم الثانى



ياه ! القطار كبير وطويل وله ضجيج وصفير وعندما أطلت من احدى نوافذه ـ مبهورة ـ لترى بقية العربات وهى متخذة شكل القوس ارتسمت الابتسامة على محياها الا أن يد الخولى « نجيب » أرجعتها ثانية الى مقعدها الخشبى · لكنه لم يمنعها من أن تنظر فقط من مقعدها لترى الحقول المترامية الاطراف كأبسطة (عم العمدة) التى يزين بها داره ، ها هى ذى الابسطة تعدو سريعا عدوا عكسيا · وأعمدة النور من قوة جريها تكاد تتخبط بعضها فى بعض ! يا سلام ! ان السفر بالقطار متعة، ليت « سيدة » معها لتشاركها فى فرحتها وأبوها ترى أين هو الآن ؟ وهل سيفاجئها يوما بالحلويات كما كان يفعل دائما ، وعلى ذكر الحلويات · الحاجة حسنية وعدتها بأنها ستتناولها بكثرة تضطرها لشرب المياه لتحد من حلاوتها ، يا رب ! تكون عائلة « فريد باشا » طيبة يارب ·

يلتفت ناحيتها «نجيب» الخولى ويقول فى نفسه · انها حديثة السن جدا وسقيمة ترى بماذا ستنفعهم ؟ وجهها حزين (مخطوف) وحركتها بطيئة مذعورة ·

المهم ما على الرسول الا البلاغ.ما أكثر الفتيات اللائى جئن عندهم! أخشى أن تقل أتعابى هذه المرة ، ثم ينعم فيها النظر ويقول : أتمنى ألا تكونى نحسا على !

كم كاد يصيبها الدوار فى أكثر من مرة ، العربة الحنطور مثلا ·

يبدو أن عم « نجيب » رجل ثرى ، لكنها لم تدر أن ضمن أسباب ارتفاع الأتعاب (عدة المواصلات) ·

يقترب الخولى من البوابة الخارجية للقصر الكبير الذى يمتلكه « فريد باشا » وتشاهد عائشة (البواب فى كشكه الخارجى) يقف مبتسما ويسلم على « نجيب » الخولى ويقول مرحبا :

ـ أهلا ضيفة جديدة يا مرحب !

وتنساق عائشة من يدها ، لتلمح على اليمين (سلاملك) بدرجتين من الرخام وهي حجرة مؤثثة بأثاث خفيف جميل ليستقبل زوار الريف من رجال العزبة الى العمدة ٠

والطابق الأول مكون من صالون على يمين الداخل لاستقبال الآنسات من الزائرات وأمامه تماما على يسار الداخل صالون ثان لاستقبال النساء وحجرة ثالثة فى مواجهة الداخل لاستقبال المدرسين الخصوصيين ٠

وعائشة كالحالمة تتلفت حولها وتقول فى نفسها : لابد أنهـا احدى الحواديت التى كنت أستمع اليها من أمى والحاجة حسنية، انه بيت الشاطر حسن وست الحسن والجمال ! هذا لا شك فيه !

يسير السفرجى بخطوات رشـيقة ويلمح « نجيب » ومعـه الفتـاة الصغيرة فيقول له ناهرا بلهجته السودانية : ألم نقل لـكم أكثر من مائة مرة أن تبقوا فى السـلاملك حتى تجىء (ست الدادة) لتأخذ الطفـلة ؟ غريب حقا مع أنها ليست المرة الاولى التى تشرفنا فيها بحضورك ٠

ويضحك الخولى قائلا : قلبك أبيض، كنت أبحث عن زميلك الطاهى٠

ويرد عليه بكبرياء : الطاهى يا ذكى فى مكانه الطبيعى فى المطبخ٠

وفجأة تخرج من صالون (الآنسات) فتاة مليحة بيضاء ذات شعر ذهبى معقوص الى الخلف وتشاهد عائشة فتجرى ناحيتها قائلة :

ــ تعالى يا شاطرة ما اسمك ؟

وتتأملها عائشة ، وترى الثوب الغالى الابيض المطرز بالورود وتنفرج شفتاها لتحاول أن تنطق باسمها فلا يسمع لها صوت ٠

وتطل من عينى « نبيلة » ابنة الباشـا نداءات حنون رقيقة وتقول همسا للخولى :

ــ كم عمرها ؟

فيقول مرتبكا : لعلها فى الثامنة ٠

ــ بالله عليك ما الذى تستطيع أن تقوم به طفلة فى هذه السن ؟

ــ الذى أبلغنى قال : يستحسن أن تكون صغيرة ٠

ــ نعم ، يعنى فى العام الثالث عشر أو الخامس عشر من عمرها أما هذه فلا تستطيع أن تمسك بكوب ماء ٠

وتسمع عائشة وتفهم وترقب الخولى والفتاة الجميلة وتقول فى نفسها : ليتنى أرجع ثانية لأنام وألعب مع سيدة، هذه السراية كبيرة جدا وبها ناس لا أعرفهم وأخافهم لكن هذه الجميلة أرتاح اليها ٠

لماذا لم تعطنى حلويات ؟ . حلويات ؟ اننى جائعة ، آه لو أتناول قطعة جبن (بخيرها) (وعيش خاص) !

ونبيلة الابنة المدللة تحمل قلبا وادعا حنونا ، ويبدو أن فكرة طرأت عليها لأنها بعد أن استدارت لترتقى السلالم فى طريقها الى حجرتها بالطابق الثانى قالت مخاطبة الخولى :

ـ اسمع يا عم نجيب ، هذه الفتاة ما اسمها ؟ عائشة ؟ أريدها أريدها لنفسى ان وجهها يعجبنى وأرتاح للنظر اليها ٠

وقال الخولى متهللا :

ـ اذن فسأجىء لكم بأخرى مادامت هذه لم ولن تؤدى ما هو مطلوب منها ٠

ردت نبيلة وهى مدبرة :

ـ ليس هذا شأنى ، حادث ماما فى ذلك ٠

كانت عائشة جائعة ، لكنها الآن ومع سيدتها نبيلة تطعمها بيدها شيئا صغيرا جافا ناعما وبه سكر كثير تلتهم منه الواحدة بعد الأخرى وتسمعها تقول مشجعة :

ـ هل أعجبك الـ ٠٠٠

ما هذا الاسم العجيب ؟ لم تسمع به من قبل ٠

والحجرة واسعة والسرير عريض وطويل وعليه فرش أنيق و ٠٠ لعلها منضدة تحمل فوقها مرآة كبيرة جدا تنعكس عليها خيالات الأثاث، لكنها دون أن تعى تجلس على الأرض منهوكة ٠

وتسألها نبيلة : هل لك أخوات واخوة ؟

وتهز عائشة رأسها وأخيرا يخرج صوتها : لى أخت واحدة وأمها ليست أمى ٠

وتلتفت اليها نبيلة وتسألها ثانية : وأبوك ؟ هل هو بخير ؟

وتصمت فجأة عائشة ثم تقول : الحاجة حسنية قالت : انه مسافر الى الصعيد ومضى وقت طويل لكنه لم يرجع ٠

وتؤخذ نبيلة وتقول فى نفسها : هذه الأسئلة ـ الأجوبة عليها أستطيع أن أستخلصها من نجيب نفسه ٠

أحس أن هذه الطفلة سيكون لى معها دور كبير ٠

استطاعت عائشة بعد أشهر قليلة أن تلم بكل شىء تقريبا : السراى عرفت أنها من عدة طوابق الطابق الاول اجتازته فى أول يوم من مجيئها والطابق الثانى به حجرات نوم أفراد العائلة ، الأولى لنبيلة الشابة الحلوة والثانية لعادل الابن الأكبر الأسمر المدلل المتعجرف الشرس ، والثالثة لربة الدار، أصلها نصفه تركى والنصف الآخر مصرى، أما صاحب السراى فلم يبق منه الا اسم لأنه مات من عدة سنوات ٠

أعلى الطوابق (سطوح) يحتوى أيضا على حجرات ٠

حجرة أولى للغسيل وحجرة ثانيـة للمكوة وحجرة ثالثـة للحياكة وأخيرا (حمام ومرحاض) ٠

أما الارض الواسعة التى خلف السراى فبها الجراجات التى يعلوها حجرات نوم الخدم من الرجال ٠

لم تكن عائشة هى الوحيدة (من الاناث) اللائى يعشن داخل السراى بخلاف صاحباته ، كانت هنـاك من أرضعت (عادل) ويطلق عليها اسم (ست الدادة) وأخرى أرضعت نبيلة تنـادى (ست الهانم) هاتان عدا حائكة بسيطة لتخيط الغسيل بعد تجفيفه ثم تذهب به الى (المكوجى) الذى يقيم اقامة دائمة فوق السطوح ولقب (مكوجى العائلات) ـحين ذاكـ يطلق عليه بحق ٠

فى الواقع لا تستطيع أن تقول : ان مهنة عائشة خادمة، لكنها كانت رفيقة لنبيلة ، ولم يمنعها هذا ـ من أن تطلع ـ بدافع الفضول أو الموهبة على جميع الأعمال التى يقوم بها كل هؤلاء الخدم ٠

فى غمار سردى نسيت السائق والجناينى وصبيان الطاهى الخ ٠

نعم عز ، وأكل أوز . بل لعـل الاوز حين ذاك كان من المأكولات الشعبية ٠

لـكن ما جعل عائشة حقيقـة تذهل وتكاد تصعق طريقـة تجهيز الوجبات : الموضوع يحتاج لشرح واف منى ٠

وثقة منك أيها القارىء العزيز الذى ستلازمنى حقبة طويلة مع هؤلاء الناس :

الطاهى يقيم فى البدروم ، لكنه ليس كالبدرومات التى قد تتبادر الى ذهنك ، فهو طابق رائع نظيف منسق ، كل ما تأخذه عليه هو موقعه.

المهم للطاهى الذى يصول ويجول فى مملكته جرس يسمع رنينه حينما تتلمظ أمعاء أصحاب السراى ، أقول السراى ، لا ، الدار ، تطلب ــ مثلا ــ وجبة الغذاء .

تعال معى لنشاهد ما يحدث : حبل يتدلى من بكرة ، والبكرة مثبتة فى السقف ، لنرجع ثانية للحبل: انه مشبوك فى دولاب صغير لعله أكبر قليلا (من الكوميدينو المعروف) هذا الدولاب الصغير (المحندق) اللطيف به أرفف خشب ترص فوقها أطباق بها أكثر الأطعمة وأشهاها تصل الى الطابق الأول به حجرة الطعام ، بالكيفية الآتية ، عندما يشد «السفرجى» الحبل من عنده .

المنظر والعملية تكاد تشبه طريقة صعود أو هبوط المصعد (الاسانسير) هل فهمت شيئا ؟ أرجو منك ألا تقول لا !

لها الله عائشة .. من حياة الريف السهلة البسيطة الطبيعية الى ثراء وبذخ وتخمة !

* * *

نمت عائشة وترعرعت وامتلأ خداها ولمعت عيناها وكاد الحزن يفارقها . فى السنة الأولى زارتها الحاجة حسنية مع ابنتها سيدة ، لكنهما فى هذه المرة دخلتا من الطريق الصح من البوابة الخلفية ، ولم يعيدا الخطأ الذى ارتكبه عم نجيب عندما جاء ــ لأول مرة ــ بعائشة .

فى العام الثانى تعلمت عائشة كيف تقرأ وتكتب ، وذلك لملازمتها الدائمة لسيدتها نبيلة حتىحين تتلقى الدروس منالمدرسات الخصوصيات كانت تقبع فى الركن . تسمع ، وتعى .

بدأت أناملها باللعب على البيانو حتى استطاعت أن تعزف بعض المقدمات الموسيقية .

وفى العام الثانىأيضا اختفت من لهجتها بعض الحروف الغريبة التى كانت تنطقها ــ دائما ــ حينما كانت تقيم فى القرية .

وفى العام الثالث قالت لها الحاجة حسنية : البقية فى حياتك فى أبيك .

أحبها الطاهى والسفرجى وبعض الصبية الدائمين فى السراى ٠

وابتسمت لها كثيرا (عقيلة هانم الست الكبيرة والدة نبيلة وعادل) وصادقت الحائكة الصغيرة البسيطة والاخرى الأنيقة التى كانت تخيط أثواب الأم وابنتها ٠

حتى (صانع المساج) وهو من الزوار الدائمين للسراى ٠

داعبها وأهدى لها بعض الحلوى ٠

عادل كان ينظر اليها بحدة ذكرها بالحاج والد سيدة ، لكن الاول كان ينهرها دائما ويقول : كلما أسير فى طريقى أجدك ما هذه الزبالة ؟

الست نبيلة تقول دائما عنه سواء لها أو لغيرها لا يعيب (عادل) سوى عصبيته ، لكن عائشة ـ بمفهومها ـ تقول لنفسها : طبعا انه أكثر من عصبى ، انه كريه وسمج وكل من بالسراى يخافه ويهابه ٠

ومنذ أن عبر لها عن رأيه فيها (الزبالة) وهى تختفى عن ناظريه بأسرع من البرق وتختار ركن (الأوفيس) وهو طرقة ضيقة تجاور المطبخ ، أو تلتصق ببعض الحوائط حتى يمر وتتنفس الصعداء ٠

كل السراى جميلة ، جميلة جدا ، كل ما كان ينقصها من وجهة نظر عائشة ـ هو تربية الطيور والبهائم ، فالطيور لا تربى لكنها تشترى جاهزة لتقدم ناضجة ٠

عرفت أن الطاهى يأخذ من (الهانم الكبيرة) شهريا ما يقرب من ستين جنيها يتصرف فيها كما يشاء يتفنن فى طريقة تقديم الوجبات والغداء يختلف عن العشاء يوميا ووقتها كان الجنيه جنيها ٠

أما السفرجى ـ هو الآخر ـ فكان يقبض شهريا ما يقرب من الثلاثين جنيها يشترى منها أنواع الجبن المختلفة والورود التى تزين المائدة يوميا ثم الفاكهة ٠

هذه المبالغ، المفروض أنها لأصحاب السراى، لا علاقة لها ـ بتاتا ـ بالأجر الخصوصى الذى يتقاضاه الطاهى والسفرجى ٠

* * *

عقيلة هانم امرأة بيضاء ملامحها تستطيع أن تقول : انها عادية ، لكن ما يميزها ـ بقدرة قادر ـ هو هيئتها : الشموخ المشوب بالخيلاء والأنفة ٠

ومع ذلك فأمومتها واضحة تحس بها أكثر وتلمسها عائشة تماما لما كانت تحس بأمومة الحاجة حسنية لابنتها سيدة ٠

في مشهد من تلك المشاهد يوم الخياطة ٠

اختارت الأم (موديلا) لابنتها نبيلة وقامت الخياطة بصنع الثوب بدقة ، وبينما كانت ترتدى نبيلة الثوب لتتيقن أنه يناسبها تماما تقوم الأم من على كرسيها حتى تكاد تحرق بسيجارتها المشتعلة بعض الأقمشة المتخلفة بحماس لتقول بعض انتقاداتها وتعديلاتها للخياطة ولنبيلة معا ، ثم تتأمل ملامح كريمتها الوحيدة المدللة وتقول بفخر يقطر حنانا : أريدك أن تكونى أجملهن ،أجمل الـكل ، أجمل من بنت خالتك وابنة عمتك ! وشعرك هذا يا نبيلة يجب أن تقللى (من دهانه) فبريقه الطبيعى يغنيك عن هذا ، وحمامات الزيت أكثرى منها قبل الاستحمام ٠

هذه البثور يا نبيلة التى كادت تملأ وجهك : لماذا لاتواظبين ياحبيبتى على استعمال الدواء الذى كتبه لك الطبيب ؟

تلك اللفتات واللمسات الخفيفة التى تبدو عابرة كانت تنحفر فى ذهن عائشة وتستعيدها فى خلوتها أكثر من مرة ٠

فى يوم سمعت عائشة (عادل) يصرخ مناديا :

ــ أين السفرجى ابن الـ .. لماذا لم يجهز لى مياه الحلاقة ؟ لماذا لم يرد أحدكم ؟

يريد القدر وتختار السماء أن تكون عائشة المحظوظة هى المخلوق الوحيد البـاقى فى الطابق الذى به عادل والوحيـدة التى استمعت الى صراخه ٠

كانت تكرهه ــ لله فى لله ــ وصارعهـا عاملان : عامل الاسـتجابة لتلبية رغباته ، وعامل الخوف ، الخوف من كلمة خارجة أو تصرف شائن من ناحيته وهو المشهور بعصبيته التى يعززها باستعمال اى شىء يصادفه يقذف به المخلوق الذى تشاء محاسن الصدف أن يمر أمامه !

وبينما هى فى حيرتها لمحها بثوبها القصير وضفيرتها المحلولة وعينيها الواسعتين الوجلتين ٠

قال بهدوء يحمل الوعيـد : هل سمعتنى ؟ لماذا لم تردى ؟ ولمـاذا تلتصقين بالحائط ؟ هيه ؟ تعالى هنا أيتها الدخيلة ٠

قال ذلك وسحبها من يدها الجافة الباردة ٠

وتخشب جسمها وازداد بريق عينيها وأسعفتها العناية الالهية فقالت : لم ٠٠٠ لم أتمرن على هذا العمل من قبل ٠

ـ نعم ؟ لم تتمرنى على احضار بعض المياه الساخنة ؟ تعلمين أنها (جاهزة السخونة) فحمامات الفحم التى عند صديقك الطاهى تقوم بذلك ، ما عليك الا ـ (وحرك يده بطريقة متحدية وجز على أسنانه وأكمل) ـ أن تصبى المياه فى هذا الاناء هل هو شىء صعب ؟

قالت عائشة وهى لم تدر هل هو الرعب أو منطقية الموقف التى جعلتها تتفوه بهذه الكلمات :

ـ ما دام ذلك ليس شيئا صعبا فلماذا لا تقوم به أنت ؟

الذىحدث هو أنين صادر من عائشة، وزبد يخرج من شدقىعادل يصاحبه ارتفاع يديه وهما تروحان وتجيئان على صدغى الفتاة النحيفة الرقيقة وصوتها الضعيف المتخاذل : آى ، آى !

تجىء عقيلة هانم مهرولة ، ثم تربت على كتفى عادل وتقول :

ـ انها صغيرة ولا تفهم شيئا ٠

فيصرخ بصوت منكر :

ـ أريد سببا (ولو غير معقول) يقنعنى بوجود هذه البلهاء عندنا، ما الذى يجبرنا على تحملها ؟ ميوعة أختى أو لعل بيتنا ملجأ ؟ انهالاتصنع شيئا بالمرة ٠

وتسمع عائشة وترجع بها الذاكرة الى الوراء قليلا لقد تفوه الحاج أبو سيدة بهذه الكلمة من قبل ـ تكاد تقسم ـ بأنها لم تسىء لأحد ؟

لماذا يضطهدونها ؟ ولماذا تقل القلوب الرحيمة عن القلوب القاسية؟ والأم تهدىء من ثائرة ابنها ٠

وعائشة ! من يخفف عنها ويقبلها ويربت على شعرها ؟

نعم ، انها القطة الصديقة الوحيدة التى ـ نادرا ـ ما تظلمها ٠

بعد هذا الحادث مباشرة تجرى عائشة الى ـ حاميتها ـ نبيلة وتستجديها عند قدميها وتقول بصوتها المظلوم الذى يكاد يفتت الحجر :

ـ خبئينى يا سيدتى لا أريد أن أغضب سيدى (عادل) لم أقصد، والله لم أقصـد ، بودى أن أرضيه وأن أخدمه لـكنه ينظر لى بحدة دائما لماذا ؟ لم يبدر منى ما يسىء اليه أو لأى مخلوق هنا اننى ••• اننى •••

ثم انفطرت ، خرج كل ما فيها من كمد وألم وحزن ووحدة وانت، وكأن كبدها وقلبها يتمزقان ويطرقعان !

وانكمشت نبيلة ، وانقلبت سحنتها واخذ الغيظ بتلابيبها ، ثم••
ثم لمحت دما يسيل من فم عائشة ، ففوجئت ، وروعت ، لكنها سرعان ما تمالكت نفسها وقالت بنغمات حلوة رقيقة كالتى تسمعها عائشة من أنامل سيدتها وهى تعزف على البيانو : مادمت بجانبك يا عائشة فلا تخافى ، تعالى ، تعالى يا حبيبتى ، لا • ليس بعيدا ، بل بين أحضانى !

وتمتد يد نبيلة العاجية المعطرة وتدلك ـ برقة ـ ظهر عائشة البارز العظام •

* * *

سرعان ما تمر الايام والاشهر وبعض السنوات القافزة •

كيف تفكر عائشة في مصيرها ومستقبلها وأملها وطموحها ؟ وما النماذج التى ـ من خلال انطباعاتها عنها ـ تستطيع أن تتخيل دنياها وحياتها المقبلة ؟

تعدت مرحلة الطفولة وبدأت فى الصعود الى درجات المراهقة •

كلنا أو معظمنا اقتاد بغيره من جنسه ، كانت عائشة تعجب جـدا بالخياطة البسيطة حكمت ، كانت خمرية ، عودها ، آه من عودها! (متلبس باللحم الشهى الناعم) وآه من شعرها البنى وعينيها الواسعتين •• ثم صوتها الذى يتأود ويتثنى !

لا ، لا ، لم تكن عائشة (مائعة) لكنها ـ بينها وبين نفسها ـ كانت تحيى بعد انحنائها أنوثة حكمت !

استقت منها بعض المعلومات التى ـ تخص وتفيد ـ الفتاة بعد أن أتمت البلوغ ، وكيف بل ويجب أن ترعى نظافة جسمها وقص أظافرها وشعرها •• ولو انهما اختلفا ، فعائشة تريد أن تكون لها ضفيرة طويلة غزيرة حتى تصل كعبها ، وحكمت تقترح الطول المتوسط وتسترعى نظر عائشة الى (ذلك الوشم الأخضر اللعين) الذى يتوسط جبهتها، ولا تجد ـ فى رأيها ـ علاجا لاخفائه الا (قصة من شعرها) تبدو للزينة وحقيقتها تغطية

تلك الوصمة ، وعلى أية حال لم تتيقن نضجها الا حينمـا زارتهـا الحاجة حسنية التى لم تنقطع عن رؤيتها خلال تلك السنوات ، قالت لها مبهورة: لقد ازداد طولك وامتلأ جسـمك ما هذه الحلاوة ؟ أما هاتان العينـان فيا لسحرهما لقد ورثتهما عن أبيك (ثم مصمصت بشفاهها) ، الله يرحمه ويبشبش الطوبة اللى تحت راسه !

* * *

عادل ، حصل على شهادة البكالوريا ، كان ذكيا حصيفا وهو يميل لممارسة الألعاب الرياضية ويتميز بعضلاته المفتولة وشاربه الكث ونظراته الحادة التى تكاد تخرق الحوائط ٠

يمضى بعض نهـاره فى الجولان فى طـوابق السراى يفتش وينقب لابقصد التنظيم وانما ليتصيد الهفوات والعيوب التى تصدر من الجميع ٠

سمعته عائشة مرة يقول بزهو لأمه : تأملت وجوه وسحن جميع من نعرفهم ومن لا نعرفهم من الشباب ــ الذين فى عمرى ــ فلم أجد منهم من هو مثلى ولن أقول من يبزنى !

واستشاط الغيظ بأخته فقالت له ولأمها محتجة : ما هذا الغرور ؟ أرجو أن تقنعنى : ماالذى يميزك على الآخرين : طولة اللسان أم وحشيتك؟ أتحب أن أسرد لك مساويك ؟ صدقنى سأتعب كثيرا لأنها لاتعد ولا تحصى وآخرها معاملتك للمسكينة عائشة !

فوضع يديه فى خاصرتيه وقال متبجحا مستندا الى ضعف وحنان أمه :

هل واتتك الشجاعة أخيرا ؟ بالله عليك ما دور عائشة ؟ النديمة أم المرفهة ؟ أخادمة هى أم ــ والعياذ بالله ــ سيدة بيت ؟ هيه ؟

وتبتسم الأم وتخفى ابتسامتها بأن تمسح بيدها شفتها الجافة ٠

وترد نبيلة :

ــ انها تساعدنى وترفه عنى وترافقنى كأختى تماما لو كانت لى أخت ما فاقتها فى حنانها ٠

قهقه عادل بوقاحة وشراسة :

ــ سيدى يا سيدى ، يا عينى !

عرفت عائشة أنه لا يحبها بل يكرهها كرها شديدا ٠

وفى يوم وبمحض المصادفة لمحت السفرجى بشحمه ولحمه يحصر حكمت بين ذراعيه اللتين تستندان على الحائط حتى لا تستطيع الهرب ، ثم وهو يغتصب منها قبلة والأخرى تحتج .

وكالبرق أسرعت عائشة بالجرى ، وقالت لنفسها بالرغم من أنها تلهث : دائما أرى المساوى والمباذل !

آه منك يا حكمت ، لكن سيدتى نبيلة تقول : انه اذا اجتمع شاب وفتاة بدون زواج يكون هناك خطر ، اللهم اكفنا السوء !

وفى المساء زارت عائشة حكمت فى حجرتها وشاهدت زجاجات عطر فاخرة على التسريحة ، فسألتها برقة ، من أين لك بها ؟

وضحكت حكمت ضحكة ناعمة مثيرة : من مالى ، من أجرى ، من اتعابى .

لكن عائشة ـ التى لم تنس منظرهما ، تقول : بل لعلها من حبيب .

وتتسع عينا حكمت اللامعتان وتبدو فيهما السعادة :

ـ هل أنا جديرة بالحبايب ؟

ويستبد العجب بعائشة فتقول متسائلة : وهل يسعدك هذا ؟

ـ أيتها البلهاء ، أن توهب لى هدايا يعنى ذلك أننى أروق فى أعين الكثيرين !

هيه ! أمامك عشر سنوات كى تفهمى .

وتأوهت عائشة قائلة : بل قولى مائة !

عندما أسرت الحاجة حسنية فى أذن عائشة ناصحة أن تعلمى بعض المهن : فانك تخالطين الطاهى والحائكة فلماذا لا تأخذين منهما الاسرار ؟ انها فرصتك ، ان لم تنتهزيها اليوم فستضيع منك الى الابد .

وبالفعل فى أشهر قليلة استطاعت ان تخيط ملابسها لنفسها .

استأذنت سيدتها فى أخذ بعض (الموديلات من كتالوجات) الخياطة الانيقة ، ودميتها ـ التى اشترتها ببعض ما تأخذه من مال كانت النموذج الذى تجرى عليه تجارب الحياطة .

بلغت نبيلة العام التاسع عشر من عمرها ، وقد عرفت ذلك عائشة حينما سمعت بوجه الصدفة وما أكثرها الام وهى تسر بذلك فى أذنها ثم تعقب :

ـ ما رأيك فى ابن خالتك يانبيلة ؟

وابن الخالة (أحمد) شاب (على نياته) يملك أرضا واسعة وتحصيله الثقافى من منازلهم تماما كنبيلة ٠

أبيض اللون متوسط الطول له شارب أنيق (مشذب) وشعر لامع أسود مصقول ٠

استنتجت عائشة ـ بينها وبين نفسها ـ أنه لابد قد حدث شيء من الميل لنبيلة بالنسبة لابن خالتها فهى تكثر من زينتها ، وتسترشد بآرائها ثم ـ وهو الأهم ـ يزداد مرحها وحبورها ليلة أن يزورهم ٠

فى ليلة عيد ميلاد عادل امتلأ الطابق الأول بالمدعوين والمدعوات (طبقة الذوات) التحدث باللغات غالبها الفرنسية ، والسجائر تشرب (فى مباسم) والعطر يكاد يخنق ، والضحكات العالية بعضها خشن يتسم بالمرح والآخر ناعم مثير ، لايحدث الاختلاط الا بين الأقارب المتزوجات منهن والمتزوجين ٠

عائشة تختلس النظرات : تشاهد وتتأمل وتتعجب استرعى نظرها رجل فى العام الخامس والأربعين ، البياض يغلب شعره وابتسامة وضاءة تغمر وجهه ثم حديثه الرقيق الدسم استأذن الجميع وخرج الى الحديقة ٠

ثم ارتكز بكلتا يديه الى سور الشرفة وتأمل القمر المنير وأخرج من جيبه علبة سجائره ودون أشياء لا تعرفها لكنها احستت بها .

لا تدرى آلشيطان هو ! أم سحر الليل الذى دفعها كى تمشى هى الاخرى فى ركابه وتختلس الخطى ثم تختار حوضا (من الحديقة) مزروعا بزهر البسلة لتقف فى وسطه .

يتأمل الضيف الحديقة ويفاجأ بها وســـط البسلة فيدمدم ! ما الذى أتى بزهر البانسيه بين البسلة ؟ ثم يشير اليها باصبعه أن تعالى.

كالمسحورة تأتى اليه وترتقى الدرجات الرخامية وتبتسم ابتسامة ملائكية وبهتف شيء فى نفسها : لعله أبى ، انه يشبهه كثيرا ، لو عاش لابيض فوداه تماما كهذا الرجل .

ويهمس بصوت كالعطر : من أنت يا شاطرة ؟ ويرتج عليها القول. هى نفسها لا تدرى من هى تماما فى هذه السراى : أنا ، أنا ؟

ويردد : أعرف ، انت الربيع !

وتقول فى نفسها : يذكرنى (برواية كانت تقرؤها سيدتى بصوت عال قبل نومها) . ويأتى صوتها ، انا عائشة خادمة نبيلة هانم الخاصة.

كان يرتدى « جاكيت » بيضاء كالملائكة وينبعث منه نور عجيب .

لاتدرى ماذا شجعها كى تسأله : من سيدى ؟

يرد الصوت الحالم العميق : انا حسين ، حسين يسرى ، قريب عقيلة هانم من بعيد !

وتتشجع وتسأله : لم أرك من قبل .

ويضحك ثم يقول : لكننى رايتك كثيرا .

وتفاجأ فتسأله بطهارة الأطفال : أين ؟ ومتى ؟

فيسمك بيدها .. فى الأحلام !

سألت نفسها فيما بعد : كيف واتتها الجرأة لتلقى عليه السؤال : ما الذى كنت تكتبه ؟

ــ أبياتا من الشعر : القمر عندما يكتمل يشدنى اليه ، بيننا ميعاد دائم بدأ منذ أن كنت فى العام الخامس عشر من عمرى ، لكننى اليوم أضفت (الى الشعر) الشىء الكثير .

صحت عائشة من حلمها الرائع على صوت عادل الأجش (المؤذى) وبقفزة واحدة اختفت من الشرفة .

وأسرعت بالاختباء فى حجرتها الصغيرة التى تلاصق حجرة سيدتها .

يبدو انها نامت ، بل لقد نامت فعلا ، فقد أحست بيد نبيلة هانم الحانية تربت عليها ، وتسألها برفق : لقد نمت مبكرة فى ليلة عيد الميلاد ، كم انا محتاجة اليك لأسر لك بالكثير .

وببساطة جلست بجانبها فى الفراش وكانت الساعة قد جاوزت الثانية بعد منتصف الليل .

وخرجت همساتها كالتغريد وقالت : الحب جميل يا عائشة . ستعلن خطبتى على احمد فى العيد المقبل لقد اتفق مع أمى ، منذ أن كنا طفلين ونحن متعاهدان عندما كان يجيء لزيارتنا كان يشدنى بعيدا عن الرقباء ليهمس لى : حينما اكبر هل تتزوجيننى ، فكنت اقهقه ثم أضربه فى جبينه .

وضحكت (ربما لاستعادتها للموقف) والليلة اعتذرت له عن ضربى . تصورى اعتذارى بعد عشر سنوات .

الحديث نشوة وللحب سحر جميل أطلق لمشاعر عائشة العنان فسألت سيدتها وهى كالمسحورة : هل سيدى حسين بك يسرى متزوج؟

وتتسع عينا نبيلة ثم تطلق ضحكة حلوة وتقول : الله اكبر ، لماذا تسألين ؟

تقول عائشة وهى تغضى نصف اغضاءة : لا ، لاشيء .

انه بسيط ، متواضع ، ليس كبقية الاقارب .

وترد نبيلة بجدية : فى الواقع ، هذه صفاته فعلا ، ولعلها من الاسباب التى جعلت ماما لا تقربه اليها كثيرا ، انه شاذ وهذا رأيها ، والله أعلم — شاعر رقيق يباسط الخدم والطبقة العاملة ، وأنت تعرفين من الصعب جدا استساغة هذا فى بيئتنا ووطننا ، ونعزو ذلك الى ضعف ونقص فى النفس .

ترد عائشة : غريب والله ، أراه قويا ، وعظيما .

ترد نبيلة بسذاجة : ربما لانك ...

وتنطلق كبرياء بنت القرية فتقول بشموخ : نعم لأننى فقيرة ، لكننى لست بخادمة .

وتغتصب نبيلة ابتسامة وكأنما تربت عليها فتقول :

— لك الله يا عائشة ! أهكذا تغضبك الكلمة البسيطة ، دعيك من هذه الحساسية التى ستشقيك .

هل العيد ومع بركاته تمت خطبة نبيلة لابن خالتها احمد واغدقت الهدايا الثمينة الرائعة .

تحسستها عائشة كثيرا فى حضرة نبيلة وفى غيبتها وقالت بينها وبين نفسها : سيدتى نبيلة تستحق كل خير ، هل سيقدر لى مثلا أن اتزوج ؟ من ؟ .

سمعت الست الكبيرة تقول مرة وهى تزيل الغبار عن مرآة الرواق الكبير وبين تحريكات يدها واتخاذها هيئة الاستدارة للتلميع ، كانت الكلمات تصلها متقطعة لكن مغزاها هو : السائق يصلح لها ويرد الخبيث (عادل) دمه يشبه دمها الثقيل السمج ، والله سأقيم (ندرا) لو غادرت السرايى .

فتسأله امه وفى صوتها رنة التعجب : لماذا تكرهها كل هذا الكره؟

ويأتيها صوته الصافع : أنا نفسى لا أدرى ، بودى أن أمزقها واحيل عظامها الى بودرة .

وتمصمص الأم بشفاهها : كأنك لم ترد على سؤالى .

اذن فهى لا تستحق الا السائق الزنجى ذا البشرة (المخرفشة) ورائحة عرقه التى تصعق من يتشممها ، الله يسامحكما .

لا ، لا لن تتزوج الا من تجد الراحة لديه وفى كنفه ، هل قدر لها أن تنتقل من بلوى الى أخرى ؟ والله عال .

ثالث أيام العيد زارتها الحاجة حسنية ، وبشرتها بأن سيدة ستخطب لابن شيخ الخفراء : جدع طول وعرض ، والرقبة كدة ، والعين كدة ، والشنب يقف عليه الصقر !

وتتأمل حسنية عائشة بشعرها الفاحم الرائع وعينيها الواسعتين وفمها الذى يشبه ثمار الكرز وخصرها النحيل الدقيق وأردافها التى بدأت تتخذ هيئة استدارية بعد أن كساها اللحم ، شاهدتها فى جونلة سوداء مرقطة بمربعات بيضاء وبلوزة بلون القشدة انسابت عليها الضفيرة كالافعوان .

وشهقت الحاجة حسنية وتنهدت : عينى باردة عليك يا سنيورة، وانت يا حلوة متى سنفرح بك ؟

تقول عائشة بحياء : من الذى يرضى أن يربط حياته بخادمة ؟

وتستنكر الحاجة حسنية قولها وكأنما تحمل نفسها كل ذنوب العالم : فشر جمالك وكمالك يؤهلانك لأحسن واحد .

ـ آه ! كلام !

وتمتد يدها الصنوبرية وتخفى صرة صغيرة فى حجم الكف ثم تطبق عليها بيد الحاجة حسنية قائلة بهمس :

الف مبروك لسيدة الحبيبة ، وكم افتقدتها ! كانت ايامنا حلوة ، والله ياحاجة حسنية لا استطيع ان انسى حنانك ودفاعك عنى ، على فكرة اين الخاله محاسن واختى عنايات ؟

تتنهد الحاجة حسنية وقد اغرورقت عيناها بالدموع :

ـ والله كريمة واصيلة مثل امك وابيك ، خالتك محاسن اخذت كل ما بالدار . وطفشت مع ابنتها ، سبحان الذى يعلم اين ذهبت ، واين حط بها الرحال !

اصبحت عائشة بحق صبية حلوة لونها يميل الى السقم وبياضها يشبه العاج يزيد من حلكة عينيها وشعرها .

فى حجرتها الخاصة التى تلاصق حجرة سيدتها دولاب (بضلفة مرآة) وسرير نحاسى ذهبى عليه غطاء كالفل مطرز بورود ملونة ، من صنع عائشة نفسها وتسريحة صغيرة دمها خفيف وهبتها لها نبيلة هانم بعد أن اشترت لنفسها أخرى اكثر أناقة ، وهناك فى الركن سحارة من خشب متين تحتفظ فيها ببعض الكتب والصحف اليومية ومفارش منها ما اكتمل ومنها الذى بقى على تطريزه القليل ، كانت تختار العصر لتتسلى بالتطريز .

حكمت فى الايام الاخيرة ازداد وزنها وانتفخت عيناها وذبلتا وقلت زيارتها لعائشة فى حجرتها الخاصة .

فى الفترة النهائية للخطبة كانت نبيلة تجد فى عائشة ـ متنفسا ـ لاحلامها وآمالها ومشاعرها الدافئة فكانت تفضى اليها بمكنونات نفسها .

وعائشة مع همسات نبيلة وبعض ما تقرؤه تسبح فى عالم جديد لم تعرفه من قبل .

لكن عندما اقترب موعد الزفاف اخذت نبيلة تحدثها بجدية وتقول : اريد أن اطمئن عليك قبل خروجى من السراى ، ماما تعرفينها

طيبة جدا ، لكن هذه العظمة التى تبدو عليهـــا نتيجة (ثم تضحك) لعنصرها وجنسها : فالأتراك أمرهم معروف ، أما عادل ، وهنا تبرق عينا عائشـة وتنكمش ، فحاولى أن تخدميه مثلما تفعلين معى ، الغيرة دائما بين الاخوة وربما كان يغار لأنك تســاعدينني وتهملينه ، (ثـم امسكت اذنها تداعبها) أتفهميننى .

وتحس عائشة بغصة وتقول والحياء والخوف يغلبانها على أمرها : أليس هناك ــ ولو أم لضعيف ــ فى أن تصـحبيني معك ؟ أنا على أتم استعداد ــ ودون أن تدرى امسكت بساعدها ــ لأكنس وأمسح الارض واربى لك أول أبنائك فأنا أحب الأطفال حتى كلبك الذى تعزينه سأتولى أمره واقوم بمصاحبته للتنزه عصر كل يوم و ...

وتقاطعها نبيلة ــ بعد أن أحست بأنها فى طريقها لقتل امانيها ــ يا ريت يا عائشة العزيزة ! هل نسيت اننى سأعيش مع خالتى والسراى التى تملكها فيها كل الخدم الذين يحتاج اليهم واخشى ان أقول ...

وتتضح الحقيقة أمام عينى عائشة فتكمل ما انقطع من حديث : نعم ، لا مكان لى لديكم ، هذه حياتى . فى كل أرض احط عليها أكون عبدة ، لست أنا التى أنهيت حياة أمى ولست أنا التى زوجت أبى . ولست أنا التى تسببت فى دخول ابى السجن ولست ..

ويمتلىء قلب نبيلة بحـزن مؤقت فتقول وهى تنشـد انهـاء الحديث : فكرى فى الغد وفى أنه أفضل من الأمس واليوم .

ثم تقرص خدها وتقول : ما رايك فى اننى سأبحث لك عن ابن الحلال بنفسى ؟ اتشكين فى ذوقى .

وتصـحو عائشـة من أحلامهـا وتـرد : متى سـيتم الزفاف يا سيدتى ؟

وتنسى نبيلة أن الحديث ذو شجون فترد بسـعادة : الأسـبوع القـادم .

للمرة الثانية .. التقت عائشة بحسين بك يسرى

ليلة زفاف نبيلة هانم : المدعوات فى ابهى زينة والموسيقى تصدح أمام بوابة السراى ، والورود والبـاقات المنسـقة المتبـاينة الألوان والاشكال تكاد تغطى الاروقة .

واستطاعت عائشة ــ بما ادخرته من مالها ــ أن تهدى الى سيدتها روبا على الطراز اليابانى حاكته بنفسها وطرزته ، خيوطه كانت خليطا من اللون الأبيض والأحمر والأزرق والذهبى .

كما استطاعت كذلك ان تخيط لنفسها ــ بمناسبة ليلة العرس ــ ثوبا فى لون الفل يصل الى الارض ، واستأذنت الست الكبيرة فى أن تصفف شعرها عند الحلاق الخاص الذى يجيئهم خصيصا فى السراى .

قالت لها عقيلة هانم بطريقة لم تعجبها : يستحسن يا عائشة وانت هكذا انيقة الا تختلطى بالمدعوات والمدعوين ، فربما يختلط عليهم الامر ، يمكنك أن تلوذى بأحد الاركان ، اننا (وحاولت الاستظراف بأن قرصتها من خدها) لن يستغنى عن خدماتك ، فالمدعوات والمدعوون طلباتهم لا تنتهى والسفرجى تعرفينه (لخمة جدا) .

وحاولت عائشة ان تستخلص من حديث ولية النعمة : أتمتدحها هى أم تنتقص من قدرها ؟ فلم تصل الى رد شاف !

دائما حسين بك يسرى يجدها وحيدة .

لعلها الظروف ، على أية حال لم تتصرف الا على حسب الأوامر ، انه هو الآخر فى الشرفة ، لكن القمر لم يكن قد اكتمل بعد .

ترى ما سبب تفضيله الانفراد بنفسه ؟

ستحاول أن تخفى نفسها حتى لا يظن بها الظنون .

لكنه يراها كيف لا ونورها عوضه عن نور القمر .

يأخذها من يدها ويسألها : أتعلمين أننى لم انسك ؟

وتنكس رأسها وتقول : اننى يا سيدى خادمة نبيلة هانم ، ربما تظننى أخرى .

وبصوته الهادىء المتزن الحنون يقول : انت عائشة ، من قرية (..) ولك فى هذه السراى ما يقرب من ثمانى سنوات ، لمحتك (وهذا جائز) وانت طفلة (واشار بيده) كنت فى هذا الطول لا تكادين تصلين لركبتى !

وتأملته عائشة ، كان مورد الوجه ، وخيلَ اليها ان فوديه قد

ازداد بياضهما ، وشاهدت عوينانه ذات السلك الذهبى وعينيه (المضعضعتين) الساحرتين .

لم يكن وسيما ، ولكن كان فيه شيء ، شيء عجيب .

وقد سألها . احكي لى عن طفولتك ، عن حياتك ، عن كل آمالك، أفراحك ، ما تعانينه هنا .

فرحت هى ، ثم خافت ، لكنها استانست عندما لمحت الابتسامة ترف على شفتيه .

واخرجت له كل ما بنفسها ، اختلاطها باهل القرية وهنا فى السراى . وملازمتها لسيدتها ، وتحملها لصراخ واهانات عادل وتأملها بدوره ، ثم رفع يده ومسح على شعرها وعدل عن هيئته (قصة شعرها) فقفزت الى الخلف وجلة .

لكن ابتسامته الدافئة جعلتها تستكين وتخجل فسألها : ما بك ؟ انك كابنتى ، افلا ترتاحين لصحبتى ؟

لكنها افصحت له قائلة وهى تشير الى جبهتها : هنا ، أنا مدموغة بوشم يحدد مقامى ، فانا فلاحة جلفة ، زبالة كما يدعونى عادل بك !

ويقهقه حسين بك يسرى ويقول : ما معنى هذا ؟ وما قولك فى رجال البحرية الذين يعشقون الوشم ؟ اليسوا آدميين محترمين ؟

فتقول ببساطة : لكننى لم التحق بالبحرية يا سيدى !

وبعد أن يكتم ابتسامته يقرب وجهه منها ويقول : اتعلمين ؟ انت هنا بعيدة عنهم ، عن الجميع وفى الشرفة معى ، لاننا نفضلهم ، نحن نعيش فى دنيانا ، لا نؤذى أحدا ولا نغتابه ، كما أن قلوبنا صافية ، لكننا لسنا ضعفاء .. اتسمعين ؟

كان صوته هادئا لكنه قوى عميق اخاذ ، ولكلماته فعل السحر يا لعذوبة هذا الرجل « وفيما قاله لها : لا تستكينى يا بنيتى لأحد ، أنت تقدمين الخدمات مقابل قروشهم ، بل ولعلك تشاهدين الفضائح والمآخذ ، (ثم وضع انامله على شفتيها الحلوتين) وقال : يجب الا تهمسى لأحد بما تعرفين فالشخص النظيف الأصيل يصون ، ولا يشهر .

كونى رقيقة فى كبرياء وعزة ، واعملى جاهدة ، امامك طريق

مفتوح ، اما ان يحميك رجل جدير بك ، واما أن تمتهنى خدمة شريفة تضمن لك مستقبلا واسعا مفتوحا بالخير ، هيه ! أتسمعيننى ؟

ولا تظنى أن مولدك فى القرية سيكون مما تؤاخذين عليه فيما بعد ، أجداد جدودنا كانوا من الريف ، وبعضهم ان لم أقل معظمهم نزح الى المدينة فما الفرق بين هؤلاء وهؤلاء ؟ أتعلمين ؟ انه قطار السكة الحديدية !

كيف تنسى عائشة ليلة زفاف نبيلة هانم ؟ .. الليلة نفسها .. منزلة نبيلة هانم .. مجالسة نبيلة هانم !

ثم تنتهى الليلة ، تشاهد نبيلة مع عريسها فى سيارة سوداء تتهادى بدلال وفخامة ، يخرج من نافذتها قفاز أبيض كالحمامة وكف كبيرة مفتوحة يودعان .. يصافحان فى طريقهما الى حياة جديدة تغرورق عينا عائشة بالدموع .

تعرف أنها انسلخت تماما عن قلب رحيم عطوف حماها وصانها ودافع عنها واغدق عليها .

قلب عوضها حنان الأم والأخت ، وعقل ويدان قاداها الى عالم زاخر ملىء بكل شىء .

اوصلها النور العلم وحلاوة الأعمال اليدوية واسرارها والآن وبعد أن امتلأت نفسها بتوجيهات حسين بك وبعض اللمحات الوضاءة التى أشارت اليها نبيلة هانم يجب أن تنفرد بنفسها لتحدد معالم طريقها الجديد ، الرقة فى كبرياء وقوة ، لغة غريبة وجميلة استطاعت — بعد مجهود — أن تفهم — الجملة .

تتقرب الى عقيلة هانم — الحصن الاول — اما القائد المتغطرس الشرس فسيحتاج منها — الى مجهودات مضاعفة .

عدلت من وضع (مريلتها الشمعية المنشاة) وكذا من شرائطها والقصة التى تخفى الدمغة اللعينة (الوشم) لكنها سرعان ما تذكرت اقوال حسين بك فرفعتها بيدها مسرعة كأنها تتحدى ، وتقنع ومشت بخطى حثيثة حتى وصلت الى باب الست الكبيرة وقرعت الباب .

المألوف دائما انه اذا كانت عقيلة هانم في احتياج لاحدى الخادمات أو أحد الخدم تقرع الجرس المرقوم بالنمرة التي تخصه .

وقد تذكرت عائشة كل ذلك بعد أن سبق السيف العذل .

خرج رأس عقيلة هانم المخضب — من فتحة ضلفتي الباب والمرشوق فيه بعض الدبابيس والمشابك فلمحت عائشة عينيها الذابلتين ثم — وهو الأهم — تلك النظرة المتحدية الغاضبة الشامخة التي تطل من عينيها وخرج صوتها الأبي : ماذا تريدين يا عائشة ؟

بالصوت الخجل المتردد الهياب اجابت : أريد ، اريد أن أتحدث معك .

— ادخلي .

ولمحت عائشة الدلالة التي تبيع الأقمشة والأثواب تجلس ارضا تكشف وتطنب في ذكر محاسن بضاعتها .

وباشارة من راس عقيلة هانم تكاد تسال عائشة : أسر خاص هو يستدعى خروج الدلالة ؟

وترد عائشة بأنها نفسها لا تدرى ؟

وتتنهد عقيلة هانم حيرى قلقة وتسأل بعصبية : هاتى ما عندك يا عائشة وخلصينا .

بابتسامة عائشة البريئة ، تكشف عن أسنانها المنضودة وتقول : ليس عندى ما أقوله سوى تمنياتى القلبية بحياة موفقة للست نبيلة ، و .. وانا فى خدمة سيدتى لأتلقى الأوامر الجديدة .

وتولد ابتسامة على شفتى عقيلة هانم الرقيقتين ثم تمد يدها وتربت على كتف عائشة وتقول : بنت طيبة يا حاجة (وتومىء الى الدلالة) أليس كذلك فيها الخير والله ؟

وتهز الدلالة رأسها هزات متوالية ثم تفحصها مليا وكأنما قد دار برأسها مادة لقصة قصيرة فسألت فجأة :

— على فكرة ، يا سيدتى أين حكمت ؟

وينكمش وجه المرأة ثم سرعان ما تتمالك نفسها وتقول بعظمة « غارت فى ستين داهية » .

تفاجأ عائشة وتتلفت حولها ثم تتأمل التعبيرات المرتسمة على وجه المراتين : تجد فى الأولى (الدلالة) تساؤلا متخابثا وفى الأخرى الدفاع الشامخ الذى يخفى وراءه الكثير ، لكن السذاجة المطبوعة على محيا عائشة تتغلب فتسال : حقيقة لقد اختفت دون أن تودعنى أو حتى تسلم على، هذه التى كانت تدعى صداقتى، وتلمع عينا الحاجة فتجتسم ثم تسكت .

وبرقة غير متوقعة تقول عقيلة هانم لعائشة مشجعة كانما تريد انهاء الحديث : من باكر يا عائشة ستلازميننى اتفهمين ، وسيدك « عادل » ...

فاتت عائشة بعض الكلمات لأنها تحولت بكليتها الى مشاهدة الحاجة (الدلالة) فقد اتسعت عيناها ولمحت فيهما شيئا يريد أن ينطلق .

وسالت عائشة سيدتها ببراءة : نعم ماذا بشأن سيدى عادل ؟

تسألها السيدة : الم تسمعى ؟ قلت لك : لا تضايقيه ، اقصد لا تتصرفى الا كما يريد هو .

الصباح الجديد تدخل عائشة حجرة السيدة الكبيرة فتفتح النوافذ وتزيل الأتربة من الأرضية ثم من على قطع الأثاث وتنظم الأدوات الدقيقة التى على (التسريحة) ، وبينما هى منهمكة فى عملها ترى سحنة عادل بك فى مرآة التسريحة المصقولة فترتجف ، ثم تلتفت الى الخلف مذعورة .

لم تسمع الباب عندما انفتح ، لكنها سمعت صوته الهادىء القائل : تعالى هنا .

وتتلفت يمينا ويسارا ــ كالفأر الحبيس بالمصيدة ــ ويرتفع الصوت هادرا ! قلت لك : تعالى هنا الا تسمعين ؟ وتتعثر عندما تخطو هذه الخطوات الواسعة ، ويبتسم ، ياه ! كأنه العفريت ، . لا ، أن غضبه أجمل وارق ، يقول ساخرا : الم اقل لك انك زبالة ؟ كنت ستقعين لماذا ؟ الم تتعلمى السير بعد ؟ والعجيب انك تلبسين الكعب العالى !

فتسأله بهدوء : ماذا يريد سيدى ؟

وعندما تتجعد جبهته وتقترب عيناه كل من الأخرى فى هيئة صارمة يقول : انا الذى يتحدث ويقول ما اريد ، اتفهمين ؟ لا تسالينى !

فتربع يديها على صدرها وترفع حاجبيهـــا وتتأمله ينعم فيهـــا النظر هو الآخر ، . ثم يقهقه ، وبعـــدها يبتر الضحكة ويقول وهـــو يوليها ظهره :

ــ بعد أن تنتهى من تنظيف حجرة ماما . وارجو ان يكون ذلك بعد دقائق تعالى عندى فى حجرتى الخاصـة !

الدقائق ، صارت ثوانى ، كل ما فيها يحثها يقول لها : اصمـلى الخير ، أطيعى ، لا تتركى ثغرة توصلك لأى متاعب ! من يدرى ؟ فربمـــا هؤلاء بما فيهم من نقائص أفضل من غيرهم .

تسرع لتصل الى حجـــرة القائد عادل ، تنتفض اناملها وتسرى رجفة فى جسمها كله ، فى نيتها أن تقرع الباب ــ على حسب المألوف ــ الا أنها تجد كل شىء مفتوح الذراعين : الحجرة مهوشة ، كأنما ذلك عن عمد ، رائحة الدخان تعبق جو الحجرة وهو هناك قابع فى الركن على كرسى ضخم يكاد يخفيه ، تحاول أن تتكلم كأنما ترفع أصبعها كالتلميذة المســـتاذنة ، تريـــد ان تقول : كيف انظـــم الحجـــرة وانت هنا ؟ أولا ستعوقنى ، (ثانيا) ربما ــ يتلف أناقتك ــ الغبار !

يحدد اليها النظر ، ثم تواتيها الشجاعة فتقول :

ــ هل يأذن سيدى فى الخروج حتى .. حتى .. ؟

يرفع حاجبيه ويقول : تجاهلينى ، . وقومى بعملك !

ترد محتجة : كيف ؟

يقول بصرامة: لا تجادلينى !

تحاول أولا أن تزيل الأتربة من على النوافذ كما هـــو مألوف ، لكنها فى ارتباكها تزيله من على التسريحة ، ثم تروح وتجىء قلقة محيرة ، تسمع كلماته كالمطارق !

ــ الا أخبرينى : لماذا ساقاك جافتان ؟ انهما تذكرانى بســـيقان الماعز ! ها ، هاه الم يغازلك أحد ؟ لعله الطاهى ! انا لا أقول هذا الا لأنير لك الطريق،فربما يصور لك غرورك انك حسناء ! ستعيشين خادمـــة

وتموتين خادمة ، وان كان لا بد من الزوج (ثم قلب شفتيه) فلن يكون الا السائق أو الجنايني !

حتى طريقة عملك لا تعجبني ، فانت تستبدلين الاوضاع و....

اجتاحها الغضب وسألت نفسها : انه فظ غليظ وحيد ، مدلل . أمسك بيديه الصولجان وهو (في اللغة) أفسدته أمه وبيئته ولكن انا ؟ ما الذي يدفعني لتحمله ؟ آه ! لقمة العيش وانني أنثى لا حول لها ولا قوة !

تنتهي من عملها وتحاول الخروج من الحجرة بحيث تتقهقر الى الخلف ، فلا يصح أن تسير مولية له ظهرها ، هكذا كان الاتيكيت !

تسأله بصوت رقيق خاضع مع أن كل ما فيها يصرخ ، يولول ، يصخب ، يدمدم ، الى الجحيم .

تقول : هل يأذن لي سيدي بالخروج ؟

يأتيها صوته : لقد نسيت شيئا ، ثم تبرق عيناه ويشير بيده ناحية مسند كرسيه الذي يجلس عليه : هنا غبار كثيف !

ـ لم اجرؤ ، لم استطع ، وانت تشغل المقعد .

ـ ليس لك عذر ، وبخاصة بعد أن طلبت منك .

تقترب منه وفي يدها المنفضة المزيلة للأتربة ، . تلمس جونيلتها قماش بيجامته فتشعر بالتأفف وفي ثانية تقفز الى الخلف .

يشعر هو بكل ما حدث ، فيمسك ذراعها وتحس بقوته كأنه حديد قوى أخرس ، ويقول بغضب : ما الذي يفزعك ؟ هل أنا غول ؟

تسكت ولا تعلق وشيء في نفسها يردد : ليتك تموت ، تبعد عني ، او فلتنشق الأرض وتبتلعني !

قوة قاهرة تسكن من روعها .. تهدئها .. تهدهدها .. تجاهليه .. تخطيه .. انه لا يفضلك في شيء .. تتمم عملها .. وفي تقهقرها تحدد اليه البصر .

وتغلق الباب من الخارج ، فتتنفس هواء جديدا .

بعد أيام وفي (الأوفيس) وهي تجالس (الست الدادة) يأتي

ذكر حكمت ، وتلمح عائشة بوادر شيء على محيا الدادة ، يدفعها الفضول والشفقة والحيرة كي تسألها ما خبر حكمت ؟

ترفع الدادة راسها الذي وخطه بعض الشيب ثم تعدل من ربطة منديلها الذي يلم شعرها وتتنهد. تمسك عائشة يدها وتضغطها ويأتيها حالا الجواب :

تقول الدادة : لست أدري ماذا اقول ؟ السفرجي زنجي (وطبعه حامي) ثم تضحك كأنها تبكي !

الله اعلم ماذا حدث بينهما ، يبدو أنه عاملها بفظاظة أو اشتكاها عند الست الكبيرة ، لا استطيع أن اجزم بشيء ، فقد سمعت نقاشا يدور بينهما (أعني بين حكمت والسفرجي) وبعدها انتقل الى الست الكبيرة ، وثاني يوم خرجت حكمت ولم تعد ، بل أجد وجه الست الكبيرة يتكدر عند ذكر اسمها .

تقول عائشة بثقة : اسمعي يا ست الدادة ، أنا لم اعد صغيرة ألم ترضعي سيدي « عادل » ؟

وتبرق عينا الدادة ولا ترد .

تكمل عائشة حديثها : لماذا لم ترضعيه لبنا صافيا ؟

أما أنا .. فلن أخرج من السراي الا بارادتي .

تقرع الجرس مرتين . ان النداء موجه لها من الست الكبيرة.

تهرول وتستقبلها : نعم .

تبتسم السيدة الكبيرة ابتسامتها الكالحة وتقول بصوتها الذي يشبه صوت الرجل المايع : هيه ماذا وراءك يا عائشة ؟ ثم ترفع يدها ، لن أطيل عليك هل نسيت ما لقنتك اياه من تعليمات بشأن ..

فاكملت عائشة : اعرف بشأن سيدي عادل بك ، يا سيدتي أكلمك كأنك كل مالي في حياتي : سيدي عادل بك يريدني أن أطيعه حتى لو قال لي اقذفي بنفسك من النافذة ! لكنني لم أفعل هذا ، بل فعلت ماهو افدح ، لم أجادله اطلاقا ، اتسمعينني يا سيدتي اطلاقا ؟ والآن أريد أن أعرف بالضبط مركزي هنا ؟ هل أنا خادمته الخاصة ؟ ان كان الأمر كذلك فسأبحث لي عن مأوى !

لاول مرة منذ عشر سنوات يخرج صوتها عاليا ـ بعض الشيء ـ واثقا من نفسه . هى نفسها لم تدر : هل كان هذا صوتها حقا أو صوتا آخـر ؟

وجدت نفسها ـ وهى تتحدث ـ ترفع يدها فاستكثرت هـذا واذا بها تخفضها ثم تنكس رأسها .

العجيب أن « عقيلة هانم » بعد أن اخذت من حديث عائشة قالت وكان عقلها الباطن هو الذى يتكلم : لو كنا عاملنـاه هكذا أو واجهناه ما أوصلناه الى ما هو فيه من تسلط وجبروت !

وتظاهرت عائشة بانها لم تسمع ضعفها وهو ينوه بالحقيقـة ، لكنها انتهزتها فرصة فقالت : والآن ماذا تريد سيدتى ؟

وتدمدم السيدة فلا تدرى عائشة : هلّ تحدث نفسـها هى أو تحدثها ؟ انا نفسى فى حـيرة ، على كل حال أخف الضررين : اسـمعى يا عائشة ، ستكونين خادمة عادل الخاصة .

يرتج عليها القول ، ثم سرعان ما تتماسك وتقول باعتداد : هل من عادته ، من عادتكم أن تخدمه فتاة ؟ ـ ولم تتح لها فرصـة لكى ترد ـ مثلا . حكمت ؟لماذا لم تلتحق بخدمته ؟

ترد السيدة وقد بدات تنهار ، تعلمين ان حكمت لم تكن سـوى خياطة بسيطة . لا تعرف كيف تنظم حجرة ، اما أنت فقـد مارست عملك باشراف وذوق الغالية نبيلة .

تقول عائشة باستخفاف : كان يمكن ان يحدث هـذا لحكمت لو وجهت الوجهة الصحيحة ، يؤسفنى يا سيدتى أن أرفض ، واسمحى لى أن أغادر السراى !

يجتاح الخوف عقيلة هانم فتقـول بشبه اسـتجداء : لا تكونى مجنونة ، أحيانا تخدمينه ، وانت فى خدمتى الامر واحد سيان .

ترد عائشة وقد احست بالمهانة والتسلط : لم اعد أحتمل ، انه فظيع مع الجميع ، اما معى فكأن بيننا ثارا قديما !

الرعنة التركية تنتاب « عقيلة هانم » فتقول بفطرسة : اصمتى يا فتاة ، ولا تنسى نفسـك أو مركزك ! انت هنا للطاعـة ، للخدمة ، اتفهمين ؟

عائشة ولم تيئس : نعم يا سيدتى ، لكننى لن أعمل عندكم بعد اليوم !

تنسحب عائشة بهدوء ، كأن شيئا لم يحدث .

تفيق عقيلة هانم ، ثم تسأل نفسها : عجيب أمر ابنى انه يكرهها ، بل يحتقرها ، فلماذا يسر بتجريحها ؟

بعد أن مات أبوه لم يعد لى سلطان عليه ، الشخص الوحيد الذى كان يعمل له حسابا نبيلة ، كانت تحد من فظاظته !

لو لم أطاوعه لانتهت متاعبنا ، سأبلغه رأيها ، لكنه عندما يسمع سيسفهنى ويقول : يقول مثلا : ألا تستطيعين أن تسوسى خادمة صغيرة فلاحة ذات وشم ؟ فهو لا يقبل النقاش !

آه ! خطرت لى فكرة الاستعانة بالست الدادة .

صحت عائشة من نومها على ضجة بالسراى ، ثم لمحت السفرجى يهمس لها من بعيد ، الم تسمعى ؟ فحركت يديها دليل عدم الفهم ! فأسر فى أذنها سيدى عادل بك .

قالت تستحثه : ماله ؟

قال : مريض جدا والطبيب (رمزى باشا) فى طريقه الينا .

تتذكر عائشة ما بينها وبين والدته من حديث حاد فتنكمش ، فلو لم يحدث هذا . فربما واتتها الجرأة كى تسألها جلية الأمر .

وشاهدت الست الدادة تبكى والمرضعات كأنهن أمهات. سألتها بهمس : خير يا ست الدادة ؟

قالت بصوت يقطعه البكاء : تشاجر مع والدته لست أدرى بسبب من ؟ ثم حددت اليها النظر .. على أية حال .. فى ليلتها ارتفعت درجة حرارته .. وطفح جلده ببقع حمراء ، وعقيلة هانم .. تعرفين كيف تعزه .. وتغفر له هفواته .. بكت تستسمحه وتقبله . لرقة قلب عائشة تحزن وتنسى كل ما بدر منه ولو الى حين .

يأتى الطبيب ويدخل الحجرة مع أمه وتشاهدهما عائشة بعد ربع الساعة . وعقيلة هانم تسأل الطبيب بلهفة ، لكنه يطلبها هى.

يبتسم الطبيب حائرا ثم يقول : والله هذا شأنكم لقد أرشدتكم للتعليمات ولكم ما تشاءون !

عقيلة هانم ترمق عائشة ثم تولد ابتسامة على شفتيها تنتقل بسرعة على شفاه عائشة ، تتشجع الأخيرة وتقترب بين يدى سيدتها وتقول : شفاه الله ، انه سيد البيت ، تفرح الأم فرحا شديدا ثم تأخذها من يدها وتقول : لقد حان الوقت لكى تثبتى طيبة قلبك ، انه يطلبك لتمرضيه ، فما رأيك ؟

عائشة حكمت عليها الظروف أن تعمل خادمة ، أما أخلاقها صفاتها ، معدنها فأصيلة نظيفة . لقد رق قلبها وغفرت له كل شيء انه فى مرضه لا حول له ولا قوة والناس بعضها لبعض !

حجرة نومه ذات ضوء معتم مع أنه نهار ، الستائر مسدلة ، الرائحة خليط من الكولونيا وبعض المطهرات ، الأنفاس من تحت الأغطية طويلة متنهدة ، كل شيء فى مكانه منسق كأنه عديم الحياة.

تدخل عائشة بخفيها المصنوعين من كعب كاوتش ، مريلتها كالعادة منشاة ناصعة البياض ، أناملها الدقيقة نظيفة ملساء ، تجد بجانب السرير كرسيا صغيرا قاعدته مستديرة وأرجله كحمالة الزير الذى بالبلدة ، لقد عرفته : انه لصبى الطباخ حتى الكرسي الذى ستجلس عليه يجب أن يلائمها هى من حيث الطبقة .

مهما هذبت وكانت آية فى النظافة فستبقى كما هى : الخادمة القابعة المطيعة ! دون تساؤل تجلس على المقعد ، تسمع ضلفة الباب وهى تفتح ، ثم السيدة عقيلة وهى تحاول الدخول ـ بدورها ـ بخفة ورفق .

حينما تصل اليها تقول لها بصوت خافت فيه ـ الأمر ـ لا تنس الدواء الساعة الثالثة بعد الظهر .

فى هذا الوقت لا أستطيع الاستغناء عن فترة النوم ، ولولا هذا لتوليت الامر بذلك .

كانت تريد أنْ تسألها : وهل ستجلسين على هذا المقعد نفسه (كرسى الاعدام) ؟

التزمت الصمت ، وهزت رأسها الحلو ثم صحبت هذا بابتسامة وضاءة .

لم يكن أمامها سـوى شيئين أن تتأمل الأثاث وتتأمله ، فاختارت الشيء الأول ، ثم لم يعد لها مفر من الآخر .

وجه أسمر مربع ذو لحية نابتة ، ورأس له شعر مجعد فاحم ، محصور فى (فيليه شعر) وعينان مسبلتان كثيفتا الرموش ، ثم ارتد بصرها الى أعلى قليلا فاذا حواجبه (الليفية) ذات الشعيرات الخشنة المنكوشة .

وذاك الفم ذو الشفتين الرقيقتين المغلق فى عزم واصرار وعناد ، أما يده اليمنى الخارجة من الغطاء الوردى فهى مربعة ذات أصابع غليظة قصيرة وأظافر مربعة هى الأخرى مرصعة بشعيرات كثيفة تشبه كثيرا شعر الحواجب لولا أنها أخف .

أحست بشيء فى داخلها يتقزز ، يرتعب ، أدركت أنه ليس لديها أعداء فى هذا العالم سواه ، كرهها له تغلب على كرهها للخالة محاسن وزوج الحاجة حسنية ، لكنه يقل قليلا عن مقتها للانجليز !

تدخل علينا الست الدادة ساعة الظهيرة لتضع أمامها بعض الشطائر لكنها سرعان ماتغير رأيها فتشير اليها ، انني سآخذ مكانك حتى تتناولى لقيماتك فى الخارج ، ثم أمسكت بأنفها تعبر عن أن جو الحجرة سيفسد من رائحة الطعام وأن هذا هو السبب المباشر لاقتراحها أن تأخذ مكانها مؤقتا .

تبتسم عائشة فى نفسها وتقول : لو كانت السيدة الكبيرة مكانى لسمحوا لها بالطهو فى الحجرة !

وبدون شهية تأكل ثم سرعان ماترجع الى الحجرة فتجد ست الدادة متأففة يسترعى نظرها أنهـــا تجلس على كرسى الفوتيل الذى بالحجرة وتقلب فى صفحات مجلة مصورة ثم ترتسم ابتسامة على شفتيها وتشير الى عائشة أن تعالى وشاهدى .

تلمح عائشة صورا لنساء عاريات (كما ولدتهن أمهاتهن) فى أوضاع مثيرة مغرية ، تحس بالدم الذى يسخن جسمها وبالحياء يغمرها ويكاد يدميها ، تدير ظهرها ثم تقول بصوت خافت وهى مدبرة : سأجلس على مقعدى اللطيف المريح .

وتفهم الست الدادة القفشة ثم تخرج من الحجرة وهى تهز أردافها أولا ثم أكتافها « ثانيا » .

تعرف عائشة أن موعد تعاطى الدواء قد حان منذ أشار (المنبه) الذى على التسريحة الى الثالثة ، ماذا تفعل كى توقظه ؟ اللهم لطفك ! كيف لم تفكر من قبل فى أنها كان يجب أن تهيىء نفسها لهذا الامر ؟

الحمد لله ، جاء الفرج ، انه يتقلب فى فراشه ستهمس له بصوت خفيض رقيق : سيدى عادل بك ، سيدى عادل بك ، يفتح عينيه نصف فتحة ثم ترتسم ابتسامة خفيفة على شفتيه « يا نهار أبيض » لابد انه يحلم ! بل لابد أنها هى الأخرى تحلم ! انه فى المرات القليلة التى شاهدته يبتسم فيها كانت تعقب ابتسامته مصيبة ، أو هو بتعبير أدق لا يستعملها الا ليبيد من أمامه تماما الهدوء الذى يسبق العاصفة !

وبهزة من كتفيها تقنع نفسها : وأنا مالى ! المهم أن أنتهزها فرصة ، تقوم من على كرسيها وتقترب منه ثم تقول ثانية : لقد حان ميعاد الدواء ياسيدى .

تتناول الزجاجة ـ وباصابع مرتجفة ـ تصب قليـــلا من الدواء فى فنجانة قهوة صغيرة نظيفة وتناوله اياها بعد أن تساعده على أن يجلس بحيث يستند ظهره الى السرير .

يهز رأسه كأنه يشكرها ثم تلمح تعبيرات وجهه المتقززة وهو يتناول الدواء فتخفف عنه قائلة ... بالشفاء .

يستمر فى جلسته لكنها تنبهه برفق ، ليستلقى ثانية ، وبالتدريج يأخذ جسمه فى الهبوط حتى ينام نوما مريحا ويبتسم فى حنان ثم يغمض عينيه . تقول لنفسها : ليس بمستبعد ان عدوى المرض انتقلت منه الى، وعلى ذلك فمن تهيئات الحمى خيل الى انه يبتسم ويطيع ، يطيعنى أنا الزبالة ؟ تحس بآلام فى ظهرها فتدلكه بيديها وتعرف أن السبب هو هذا المقعد اللعين .

يلمحها هو ويدرك كل شىء ، فيشير الى الكرسى الفوتيل ، لكنها تعترض بابتسامة حلوة وتقول برقة : لم تكن هذه أوامر الست الكبيرة ، لكن سحنته تنقلب « يانهار أسود ! » ويدمدم ثم يشير الى نفسه : أنا هنا صاحب الكلمة ، فتقول فى نفسها : انه قانون يعرفه الكل .

تضطر لاغتصاب ابتسامة ، تتمشى مع الموقف وتنتقل الى حيث أمرها الى الفوتيل ، تعدل من وضعها ومن وضع ضفيرتها الغزيرة الفاحمة ، ثم تتذكر أنها ستمكث بجانبه فترة ليست بالقصيرة ، ترمقه كأنها تستأذنه لتأتى بمفرش تطرزه كى يضيع الوقت فى عمل ذى فائدة .. بعين واحدة

منه يعرف نيتها فيهمس من بين أسنانه .. لا تتأخرى .. تهرول الى الخارج وتأتى بمفرشها وخيوطها وابرتها تدخل برفق لتجده (فى سابع نومه) ويبدو أن لدوء جو الحجرة والرائحة اللطيفة المنبعثة من العطور الخفيفة والمطهرات ثم دابها على التطريز أسلماها للنعاس .

تغيرت اللوحة : هو ببعض حيويته يجلس متربعا على السرير وكل النوم ذهب منه ، وهى فى عالم آخر تحوطهـــا وتسندها الملائكة يتأملها .. يفحصها ، هو الخبير الضليع بالنساء ، ثم يقول فى نفسه : تــرى ستكون من نصيب من ؟ لماذا أريد أن أحطمها ؟ ليس فيها من أخلاق الخادمات أية لمحة .. أمن طبقتنا هى ؟ (ثم تنضم حواجبه الى عينيه) وحالا يطرد الفكرة من رأسه ويستقر أخيرا أنها من الطبقة المتوسطة.. ربما ...

ان من يهيىء مثلها السراى ، السراى الكبيرة التى تحكم البلاد .. تأتى بعض الجوارى (السوداوات أو البيضاوات) الى السراى وهن فى أوائل شبابهن حتى يصرن عروسات ، أما سراينا فهى (على قدنا) فما وضعها تماما ؟ هل مأكلها وملبسها (يزعزع) من ميزانيتنا ؟

ثم يضحك ضحكة قصيرة كأنه يسخر من نفسه (غير معقول ، غير معقول) اطلاقا أتروق لى هى ؟ ثم يهز كتفه بصلف : لماذا تجتاحنى الرغبة فى أن أقتلها ، أن أخنقها ثم ينظر الى يديه (بيدى هاتين) ؟

كلها حنان ، رقة ، خضوع ، وطاعة تامة ، لعلها مثلجة كالجلاس أو أنها جسم بلا روح ، واذا كانت بلا روح فما معنى رقتها ؟

ثم يستلقى على جنبه بعنف ويقول بصوت مسموع : أف ! مالى ومالها ؟ (بلا قرف) .

تستيقظ بعد أن تسمع هديره ، فى الحال تعدل من ذيل الثوب وتلملم ملابسها ، لعل لحمها انكشف فى أثناء نومها (يا نهار أبيض! نوم؟ هل نامت ؟ استرها ياكريم) .

سريعا بنظرات خاطفة تلمحه يبتسم ؟ انهـــا الابتســـامة القديمة المألوفة ، جميل ، جميل جدا .

تقـــوم من على الفوتيل ، وتذهب اليه قائلة : هل تحتـــاج لشىء يا سيدى ؟

ماشاء الله ! لقد بدأ يسترد عافيته ، اللون الوردى كاد يلون خديه وتبسم ابتسامة من نوع مخالف .. ملائكية .. فطرية .. حالمة .

يرد أريدك !

تقول في نفسها : أريدك ! يريدني ؟ لماذا ؟ تخرج ظنونها فتسأله :

لأى شيء ؟

يحملق اليها .. انني أريدك وكفى ، تعالى هنا .. بجانبى على السرير . الا تسمعينني ؟ سأعلمك كيف نلعب الورق ، حتى تتسلى مع الدادة . هذا هو الشيء الوحيد الذى لم تتعلميه ، لو أتقنته فلن يبقى هناك حاجز بيننا وبينك ، لقد سمعتك تتكلمين ببعض الكلمات الفرنسية والانجليزية .. و ..

تتأمله وتقول : أهذا هو جزائى ؟ ماذا يريد منى ؟ أن أجلس بجانبه على السرير (طرى) وسأستريح .. الى متى ؟ وما الذى سأجنيه بعد الراحة ؟ الندم ؟ اللوعة ؟

يتخشب جسمها .. وتلمع عيناها .

ثم حدث شيء غريب قالت بصوت فيه صلف الست الكبيرة واعتداد نبيلة هانم : واذا رفضت ياسيدى حتى لو قذفت بى من النافذة !

ينظر اليها بحدة ثم يقهقه ويقول بصوت (حاول أن يجعله طبيعيا) : هل تسمحين لى بذكر أسباب الرفض ؟ قالهـــا ويداه تتحركان بطريقة مفتعلة فيها الهزء والسخرية وتحمل وراءها الكثير .

ترد بالعجرفة نفسها : ليس هذا عملى .

يقول : وهل من بين أعمالك أن تمرضيني ؟

ــ من أجل الخير ياسيدى .

ــ اذن فأنا من بين أعمالك الخيرية .

ــ ....

فجأة هدأت العاصفة ، لقد قرع الباب ، ودخلت الأم تقول بحنان : كيف حالك ياعادل ؟

ــ زفت !

ــ لماذا ؟ كفى الله الشر .

يبتسم ابتسامته الصفراء ويقول مشيرا الى عائشة : اسأليها .

ـ لقد انتابت سيدى حمى ، جعلته يتفوه ببعض الكلمات الخرفة، ولم يصدق الا عندما أخبرته .

تسأل الأم بانزعاج : ماذا قال ؟

ـ كان يريدنى أن ألاعبه الورق بجانبه على السرير !

(تفهم عقيلة هانم ثم تغضى) فتنتهز عائشة الظرف وتخرج مولية لهما وجهها .

ـ أتسمحان لى ببعض الراحة ؟

ثم تغلق الباب من الخارج .

بعد بضعة أيام يأتيهم الطبيب الذى يقرر أن (عادل) بدأ يسترد صحته ، لكنه منعه فى الايام المقبلة أن يسهر أو أن يدخن ، وعلى ذلك فعائشة متمشية مع الظروف ، قل عدد الساعات التى كانت تقضيها بجانب سرير عادل .

عقيلة هانم أهدت اليها (شكمجية) وهى صندوق مزركش لونه ذهبى عاتم به مفتاح وقفل ، عادة تحفظ فى داخله بعض الأوراق المالية أو بعض قطع المجوهرات .

سرت عائشة جدا بالهدية وعرفت أنهـا نظرا لخدمتها وتمريضها لعادل باخلاص وعناية ـ قد استحقتها عن جدارة .. تمر بعض الايام التالية وقد استرد فيها عادل كل عافيته ، فى المساء تقام مأدبة عشاء احتفالا بشفائه التام ، وتجىء نبيلة مع زوجها .

تراها عائشة وقد ازداد وزنها وتألقت عيناها ، وكادت تكتمل فيها معالم المرأة الناضجة ، تلمح عائشة على مائدة الطعام بعض الخمور ، فتعجب عندما تتذكر نصائح الطبيب .

وعندما ينتهى العشاء والكل يهجع وتخرج نبيلة مع زوجها تتهيأ هى للنوم ، تخلع ملابسها ، وترتدى قميصها ، ثم تتأمل نفسها فى المرآة ، فتلمح نهديها الكرويين وخصرها النحيل وأفخاذها الممتلئة فى تناسق ، ويحلو لها أن ترفع قليلا طرف القميص لتدقق النظر الى ساقيها .

لقد قال لها عادل بك : انهما تشبهان سيقان الماعز ، له الله ! لقد قالت لها نبيلة ـ مرة ـ ليت لى مثل ساقيك فهما ملفوفتان ورجالنا وخاصة الشرقيين يميلون جدا لهذا النوع .

ثم تستدير .. ببطء مثير ، وبهيئتها الجانبية تلمح أردافها المستديرة .

وأخيرا عندما تتأمل قسماتها فى المرآة لاتلمح وجهها فقط ، لقد كانا وجهين : وجهها ووجه عادل بك !

تنتابها رعشة وجلة وتستدير مولية وجهها ناحية الباب ٠٠ لاول مرة تنسى اغلاقه بالمفتاح ٠

لا شعوريا ترفع ذراعيها الى صدرها الناهد محاولة اخفاء نفسها .. ممتلكاتها .. مدخراتها .

تبرق عيناها فتسأل بصوت محشرج : ماذا تريد ؟ كانت السيدة وكان العبد ٠٠ كانت المالكة وكان المستجدى ٠

انه يرتدى (المنامة) المخططة كالحمار الوحشى وعلى رأسه الكبير الخاوى (فيليه الشعر) وجاكيت البيجامة مفتوحة لتظهر من فتحته شعر صدره الحيوانى الممزوج بعرق العافية والشباب ٠

يقول بصوت مستكين : عائشة ! عائشة !

فتصرخ وكأن الصوت يخرج من يافوخها لا من فمها ٠

قلت لك : اخرج هذه غرفتى وأنا بملابس النوم والوقت بعد منتصف الليل ٠

ينحنى جسمه كأنه يريد أن يختفى ، يستتر عن أعين الفضوليين ، كونى عاقلة يا عائشة ، لا تثيرى شغبا ٠٠ لا ٠

يعلو صوتها : سيزداد صراخى ان لم تخرج ٠

ثم تسترد نفسها ٠٠ كم مرة حاولت ؟ هيه ؟

هذه هى الهفوة الوحيدة التى صدرت منى ، فى كل ليلة ، فى كل مساء أغلق على نفسى الباب ٠

هل هى مصادفة أن تفلح فى الدخول هذه الليلة بالذات والباب يسهل فتحه ؟

يرفع يده ، يريد أن يلمسها ٠

تلمح (الشكمجية) عنوان الاخلاص والوفاء ٠

تلمسها وتبرق عيناها ثم تهدده قائلة : خطوة واحدة وسأقذف بها ناحيتك ليتك تموت ! تتبدد !

أكرهك وأتمنى أن تخرج ولا تعود ، كل ما فيك ينفرنى صوتك • نظراتك ، هيئتك ، ملابسـك اذا تصـادف وكانت بين يدى أتمنى أن أحرقها ، ماذا تظن نفسك ؟

انسان تافه ، لا يعمل ، لا يقرأ ، لا يتحدث كحسين بك الرجـل العظيم الذى أحترمه ، تستمر فى صخبها وثورتها ، وعندما يجىء ذكر حسين بك تحمر عيناه ويغلى الدم فى عروقه •

فى أثناء ثورتها تنسى نفسها فيتهدل شعرها ، يغطيها ، يسـترها يحميها ، لكن كيف ؟ ان القميص يكشف كتفها العاجى المسـتدير الناعم المصقول ؟ تستبد به الغيرة يجرى ناحيتها ثم بكل ما استرده من عافية يمسكها من ظهرها ثم تلمس شفتاه شفتيها الحمراوين النافرتين .. تشم رائحة خمره المعبقة • تجمع كل ما فى فمها من لعاب وتقذف به مرة واحدة الى وجهه المتوحش الثائر •

يلمح مظلة على كرسى فى الركن يمسك بها وينهال بها عليها على رأسها وكتفها ، وأردافها ، من شدة آلام الضرب تقع على الأرض وتجهش بالبكاء ، ثم تصرخ : أمقتك يا متوحش ، يا سفيه ! يا بغل ! يا خنزير !

عرفت سرك ، لقد سطوت على عرض حكمت ، اضرب • اضرب كما شئت • لكننى سأفوز ، سأتغلب عليك !

وبقفزة واحدة تمسك (الشكمجية) وتقذفه بها فيخرج من حجرتها مهرولا ، وهو يصخب : سأريك ، سأريك ، يا خادمة ، يا حقيرة !

تصرخ بأعلى صوتها : تعالوا جميعا كلكم ، لتشاهدوا (عادل بك) يريد اغتصابى ، الجبان ! الجبان ! الجبان !

عادل .. كل الظـروف والملابسات خلقت منه انسانا مسـتبدا أوهم نفسه أنه ان لم يتول القيادة انهار كل شىء .. ورث عن خالـه الفظاظة والشراسة، لم يتعود منح حنانه لأحد ، هذا ان كان هناك حنان يغمره ، بينه وبين نفسه يعرف ويدرك أنه ليس هناك ــ من يفتقده ــ حتى أمه ، تمنحه عطفها وكأنه واجب أو ضريبة .

النساء من طبقتهم : القريبات منهن أو اللاتى صاهرنهم يتوجسن منه خيفة •

وعلى ذلك لم يكن هناك مناص من أن يتقرب الى الجاهلات البدائيات

معظمهن من الخادمات أو من الطبقــة الكادحة ناهيك بالعــاهرات اللاتى يمنحن بسخاء .

حكمت لاءمته ــ لكنها ــ كغيرها لم يجد فيها طعما جديدا .

حدث ما حدث بينهما ، لأنه كان لا بد أن يحدث ، سواء كان اسمها حكمت أو خديجة ، فقد كانت تتمتع بكل ما يرضيه ، يرضى غروره أو مرضه .

عائشة نوع جــديد ، غريب ، أو لعله طريف جــدا . الأنوثة من مميزاتها . الرقة ، النعومة ، لكن فى ظروف معينة خاصة .

يعيبها .. مرضها بشىء يسمى .. الكرامة وشىء آخر أفدح وهو فرط الحساسية .

أولا .. اشتهاها كدأبه ، ولما تمنعت واستكبرت طعنته ومزقته، فأوهمه تسلطه لا كبرياؤه أنها لا تجسر على الارتقاء الى مستواه ، لكنها تمادت وصمدت ، اجتاحته مشاعر رجل الغاب فعاند وكابر .

ولما صرعه المرض تخلت عنه قوته الجسمانية ــ فلان وخادع حينما مرضته قاومت ظلمه وتعنته ، فغلبته على أمره ، حينئــذ ، وحينئذ فقط خاطبت قلبه ، هذا القلب الحجرى الذى لم يخلق الا لكى يدق ومنه تنبعث حياة ، ولتكن أية حياة .

حينما كان ينعم النظر الى عينيها كان يلمح فيهما : أننى أغوص الى أعماقك القذرة وأفهمك، لكننى لا أخافك ، بل أخاف لقمة عيشى الطاهرة .

لم يكن من الممكن اتخاذها خليلة الا بالاغتصاب .

أما أن تكون حليلة .. فالموت ــ لديه ــ أفضل وأعف .

الحل الثالث أن يتجاهلها بأن يميت صرخات قلبه العاوية وكان هذا أصعب على نفسه من كل الحلول .

الحب ، الحب الحقيقى الذى يجتاح النفس والقلب والجسم يبنى على الضعف .. المنح .. البذل .. على التضحية .

لأول مرة بعد أن ناهز عادل الثلاثين من عمره يحس بأنه ضعيف متخاذل ، يستعذب الذل والمهانة .

لو كانت منحته شيئا ولو قليلا فياترى : هل كانت تخمد عاطفته ؟ من يدرى ؟ فخلقه المتسلط الأنانى الصفيق .. من الصعب بل نكاد يكون مستحيلا أن يتحول هذا كله الى شخصية لينة مستجدية .

فى سنوات قليلة استطاعت فتاة رقيقة ابنة القرية .. ربيبة المدنية أن تثنى رقبة شاب وتطرحه أرضا بل ، وتحت قدميها !

قاومت تسلطه بالتجاهل والاباء ، وسدت أذنيها عن صرخاته التى كانت تحمل فى طياتها الاستجداء والذل .

صرعته بكبريائها وصمودها وشجاعتها .

ولما فضحته أمام رعيته وملأت الأسماع بانتصارها أخمدت فيه أنفاسه المتبقية وبعد أن ضربها أدرك أنه أيقظ فيها العفة التى كانت تختزنها لمن هو جدير بها .

سمعها فى دفاعها وهى تنوه باسم حسين يسرى .

دخل حجرته متخاذلا ولم يجد شيئا يضربه سوى رأسه .. فى الحائط !

لم يكن أمام عائشة الا طريقان : اما أن ترجع الى القرية وهو أمر يكاد يكون مستحيلا ، واما أن تلجأ الى من حمتها وصانتها وهذبتها « الست نبيلة هانم » .

وجدت نفسها تجمع حاجاتها ، بجانبها السفرجى الذى قيل عنه فى يوم ما : انه المغتصب الجبار بالنسبة لحكمت ، تسبقه دموعه على فراقها ، لكنه بينه وبين نفسه يحبيها ويكبرها ، فقد صارعت من ؟ الوحش الذى يجلجل صوته فيخترق الجدران .. الست الدادة والتى قيل لها فى يوم ما : انك لم ترضعيه لبنا صافيا تنحنى ـ أيضا بينها وبين نفسها ـ لمخلوقة تبدو فى نظر الكثيرين ضعيفة وتدعو لها من خلجات قلبها أن تصونها العناية الالهية وتحميها ، عقيلة هانم الشريكة غير المباشرة فى افساد ابنها تختفى عن الأنظار المتطلعة الشامتة فى حجرتها .

الغريب أن عائشة استردت قوتها وحيويتها وأحست أنها فى طريقها الى حياة (ثالثة) تكاد تكون مشرقة ، ففى حياتها الأولى ذاقت مرارة الحرمان .. حرمان اللقمة .. حرمان العطف .. عطف الأب .. عطف

الأم ، شاهدت كيف تمنح الام وكيف تتلقى الابنة ، والنماذج هى الحاجة حسنية وسيدة ابنتها ، ثم عقيلة هانم وابنتها نبيلة ٠

وفى حياتها (الثانية) راقبت نموها الجسمانى والعقلى واستطاعت باحتكاكها بنمـاذج جـديدة من لون وطعـم مختلف أن تخطو خطوات واسعة لكنها وئيدة ، ثم أدركت أخيرا أن فى استطاعتها ـ ولو أنه شىء صعب ـ أن تعتمد على نفسها ٠

رافقها أصحابها الأوفياء : الطـاهى وصبيانه ، السفرجى ، الست الدادة ، السائق ، ثم الجناينى ، وسـائق الحنطور (حنطور السراى) أوصلها حتى باب السراى ، سراى نبيلة هانم ٠

نبيلة كانت على علم بحضورها فقد أخطرتها تليفونيا ، وأخذتها بين أحضانها ، ثم أشارت اليها بطرف خفى كى تحتميا فى ركن بعيد ، وافتتحت الحديث نبيلة هانم قائلة وهى ترفع يدها الدقيقـة الحلوة : لا تقولى شيئا ٠

لقد صنعت ما لم أستطع أنا أو (ماما) أن تصنعـه ٠ عـادل أخى لـكنه فاسـد ٠ ولو أنى كنت أريدك وانت خارجـة من عنـدنا أن تكونى محملة بجهاز عرسك (ثم خبطت فخذها بيدها) وهى تقول : قسم ونصيب ٠

عائشة بعد أن صقلتها التجارب تريد أن تدخل فى الموضوع مباشرة ولذا فهى (بلباقتها المكتسبة) تقول : أرجوك يا سيدتى أن تعلمى بأن وجودى معك سـيكون لأيام قليلة (ثم ترفع يدها هى الأخرى ولـكن بطريقة خاضعة) « ان كان حبيبك عسل ماتلحسوش كله » أعرف أنك ستدلينني على الطريق الصحيح الذى منه سأستقر فى حياة جديدة مريحة ، تضحك نبيلة حتى تظهر أسنانها العاجية ثم تربت على كتفها وتقول : بنت حلال ، أتعلمين ؟ (ثم تضم شفتيها بطريقة مداعبة وتكاد تولد ابتسامة على شفتيها) من سيزورنا الليلة ؟ حذرى ؟ تماما ، تماما ، انه هو حسين بك يسرى ، هاهو ذا وجهك يشرق ! ألم أقل لك ؟ المهم المقابل الذى أريده منك ٠ كعكة الفطير بالتفاح التى تعلمت صـنعها من الطاهى ، هه ! ما رأيك ؟

تلمع عينا عائشة ويتورد خداها وتحس بأنه ما حدث لهـا من أيام قليلة كالكابوس صحت كى لا تجد منه سوى ذكرى كأنها لم تكن ، هذا الرجل حسين يسرى فى مقابلتين اثنتين استطاع أن (يقلبها) تماما كما كانت (تقلب) جوارب العائلة ٠٠ لكن شتان !

تقفز سريعا من أمام نبيلة ، وتترك حاجياتها ، ثم تستعلم عن مكان المطبخ لتهيىء الفطيرة كما وعدت سيدتها ٠

فى المساء تأخذها نبيلة الى حجرتها وتقول لها همسا : حمـــاتى لاتعرف من قصتك الا القليل المشرف ، فأرجوك بل أناشدك أن ترتدى هذا الثوب الابيض ، ان اللون الابيض حلو عليك (ثم تنهدت اعجابا) فى هذا المساء يا عائشة أتمنى لك ليلة طيبة٠

ابتسامة عائشة الخلابة وعيناها النجلاوان وقوامها اللدن وبشرتها ذات اللون الواحد ، ثم حديثها العذب اسـتطاع كل ذلك (مكتملا) أن يدير رءوس حماة نبيلة هانم وحميها وزوجها ٠

وأحست بأن الدنيا ما زالت بخير ٠

أما من استطاع أن يطويهـــا فى مرتين اثنتين فقد دخـــل عليهم بابتسامته الوضاءة ، ثم عندما لمحهـــا فغر فاه ومد كلتا يديه مسلما عليها ٠

وبعد أن انتهى العشاء أمسك بها من يدها ، ثم قال برقة وحزم : هاتى ما عندك ياعائشة ، كل ما عندك ٠

فى الصباح البـــاكر تستيقظ عائشة كالطفلة النشيطة وتحيى سيدتها نبيلة ، فتغمز لها الأخيرة بطرف عينهـــا وتقول : نعم أنا على استعداد ، لكن بعد الافطار ٠

تنفرد عائشة بنفسها وتفكر فيما حدث أمس مساء ، ثم تستغرق فى التأمل ولا تصحو الا عندما تسمع صوت سيدتها وهى تقول مشيرة الى رأسها : هذا المخ (العالمى) أطلعنى على كل شىء ، حسين بك مريح جدا مع خدمه وأتبـــاعه ، انه كما ترينه بالرقة والعذوبة نفسيهما ـ وأرجو الا تظنيهما وقتية ـ يضفى على من حوله جوا مستقرا حلوا ٠

وتهمهم عائشة ببعض كلمات لا تفهمها جيدا نبيلة فتسـألها وهى تمسك خدها : ماذا تقولين يامكيرة ؟

سرعان ما يبدو الارتباك على محياها وهى تقول : لا شىء ، لا شىء ٠

فتستحثها نبيلة مشجعة : ماذا وراءك ؟ ألم يكن تخمينى مضبوطا ؟

وترد عليها عائشة بصوت مرتعش : تقريبا ٠

وتذهل نبيلة فتقول بحماس : ماذا تعنين بالله عليك بـ «تقريبا» ؟

عائشة : أقول ·· أقول ·· لقد ·· لقد ·

فتخبط نبيلة هانم كفيها بعضهما ببعض ثم تسألها بمرح : لعل الفضول دفعك فتناولت رشفة من كوب خمر ! ماذا دهاك ؟

وتبتلع عائشة ريقها وتحاول الاجابة لكنها — أخيرا — لا تستطيع وتهمس نبيلة لنفسها : لقد غيرت رأيي في مخي يبدو أنه ·· غبي !

ثم تتأمل محيا عائشة وتسألها هذه المرة بلهجة جدية : هل عندك الرغبة كي تصارحيني بالحديث الذى دار بينك وبين حسين بك ليلة الامس ؟

ترد عائشة وصوتها يزداد ارتعاشا : جدا ، يا سيدتي جدا ·

نبيلة هانم : اذن ما الذى تنتظرينه ؟

عائشة : ربما لأن ما سأقوله يغضبك ؟

نبيلة وهى تبتسم : لا تكوني ساذجة ، قلت لك : انني أضمن « حسين بك » أكثر مما أضمن (سراينا) فلا تخافي وعلى (ضمانتي) ثم انه يعيش مع عائلته فما معنى خوفك ؟

عائشة وهى تمسك رأسها : الموضوع ليس كما تتصورين ·

نبيلة في شبه ذهول : هيه ؟

عائشة وقد وافتها شجاعتها : لقد سردت عليه كل ما حدث عندكم كله بالتفاصيل والجزئيات ·· وبعدها ·· وبعدها عرض على الزواج ·

صوت نبيلة وقد علا وكأنه خارج من ميكروفون : يانهارك أسود ·· عائشة ؟ ثم أمسكتها من كتفها بطريقة لا أثر للحنان فيها ، هل بلغت بك المهارة أن توقعيه ؟ هذا ، هذا الرجل الذى لم تستطع أجمل جميلات العائلة ان توقعه في حبائلها ! انني لا أكاد أصدق ، عائشة هل نسيت نفسك ؟ ومن أين أتيت ؟ وكيف نشأت ؟ ثم أشارت الى جبهتها ، هـذا الوشم الأخضر الدامغ انه سيرافقك مدى حياتك ! ان عائلتنا بعد العائلة الحاكمة في البلد ، أفيقي لنفسك ! لولا أن « حسين بك يسرى » لايشرب الخمر على ما أعرف — لقلت انه كان سكران ، ستكون فضيحة ، مصيبة ، كارثة ، وسيشير الكل الى أنني السبب ، فلولاى لبقيت القروية البليدة الخشنة !

كانت عائشة تتوقع أكثر من ذلك لكن تضحيتها هذه المرة اذا ما رفضت العرض ستكون في مصلحة من ؟ لم تجد مفرا من الصمود أمام من تمثل الطبقة الحاكمة ، فسرعان ما تغيرت نغمتها ، واذا بها تسترجع شجاعتها فتقول برصانة : لا أنكر جميلك على لكننى لم أرتب شيئا ، فلست أنا التى أوعزت لأخيك أن يطاردنى ويضطهدنى ويعذبنى ثم يضربنى لأننى لم أستجب لنزواته ، وحسين بك خلق شاعرا رقيقا يحب طبقتنا ، وليس لى فى ذلك أى ذنب ؟

ولذلك فيؤسفنى أننى لن أرفض عرضه والآن ماذا يمكننى أن أصنعه لك كى أرد جميلك ؟

تبرق عينا نبيلة ثم تقول بصوت مبحوح : الا ترينى وجهك بعد الآن !

القسم الثالث



في مدة وجيزة جمعت عائشة أشياءها مرتين وفي أثناء انهماكها تستعيد ما حدث بينها وبين من عرض عليها النــور والأمل ، نعم لقـد أخرجت له كل ما بنفسها كأنها منومة ، كانت تعرف فى نفسها موهبة عذوبة الحديث التي ورثتها عن أبيهـــا ، ودون أن تعى سردت وعلقت وعقبت ، وفى فلتات من حديثها كانت ترقبه كان يتألم عندما تتألم ، وأحيانا تتغير تعبيرات وجهه الى الحماس والتشجيع وفى المواقف الدقيقة كان اما أن يغضى أو أن يشيح بوجهه ، وأخيرا وبعد أن انتهت ٠٠ تأملها وكأنه يراها لاول مرة ٠ ثم قال : كما قلت لك ــ من قبل ــ ياعائشة كلنا من الريف من الأرض الطيبة النقية الطاهرة ومع أن حياة المدينـــة قد ــ جرفتنا الى حد ما ــ فانها لم تستطع الا أن تزيل بعض الأتربة ٠

اعذرينى فى حديثى ، فان شـــاعريتى تغضب الــكثيرين لأنهم لا يفهمونها ٠

أنا دائما أمثل في العائلة ــ الانسان الشاذ ــ ولا داعى للتــكرار بأننى لست مثلهم الا فى صلة الدم ! عائشة ٠٠ اننى معجب بك ٠٠ وعمرى خمسة وأربعون عاما أى أكاد أكون فى عمر أبيك ، ولا تظنى أن ظروفك وحدها هى التى دفعتنى كى أختارك ، لكن طباعك وجوهرك لم أجد لهما مثيلا فيمن يعش حولى ، هيه مارأيك فى ؟ (ثم أشار الى نفسه) كعريس ؟

ولما اتسعت عيناها وفغرت فاها وكادت تولى جزعة وجلة ٠٠ أمسك بها من يديها وقال : غدا ظهرا ٠٠ تكونين فى بيتى لاتخافى ، ولست ممن يمزحون فى هذه الأمور ٠

عندما تحضرين ستجدين كل شىء معدا ٠

تذكرت أن نبيلة ــ أخبرتهـــا بأنه يعيش مع أهله ٠٠ وهذا البيت اللطيف الذى يهمس ــ لا أسمع الا اثنين محبين ــ يكاد يطلعها على ما حدث فيه من مدة قصيرة ٠

حسين بك له أم .. وشقيقة . وشقيق لايذكر اسمه الا لماما أما الوالد فقد رحل عن دنياهم .. عمل كل ما فى وسعه كى يوفر لهما الخير .

كانت الأم تتمتع بنعومة خطرها أعم من حلاوتها ، بدت وكأنها مستسلمة أو ـ شبه راضية ـ ولو أن ذلك لم ينطل على حسين ، أما الابنة فلا تكاد تقول شيئا سوى انى أطيع أمى .

ابتسمت الأم ابتسامة نصفها حي ونصفها ميت وبانبعاثها خرجت همساتها لابنها (عندك السلاملك) ، وحسين ، برغم رقته وليونته رجل ، فقد رد على ابتسامتها بأخرى ـ حية ـ قائلا : نعم سألحق بالسلاملك بعض الخدم لزوجتى ، أعنى لعروسى .

فهمت عائشة الموضوع ـ بالرغم من أنها لم تعرف ما حدث بين زوجها وأهله فقد حدثها قلبها وأيده عقلها ، لم تكن من اللائى يتزعمن الانتصارات على رءوس الضحايا ، بل كانت تفضل الحبيبات على الحاسدات والراضيات على الشامتات ، ولكن كيف تملك تغيير النفوس ؟ تتأمل الصالة وتختار كرسيا من الطراز الكلاسيك وتضطجع عليه وتسند رأسها الفاحم الجميل بكفيها وتتأمل الأرض ولا تدرى ما الذى جعلها تتذكر أمها ؟ هذه التى فارقتها وهى تكاد تشب عن الطوق .

كانت فى احتياج الى همسة أم نابعة من قلب خالص ، لاكلمة اشفاق وتهوين ، أو دعوة طيبة من شقيقة حبيبة ، تشاركها فى آلامها وسعادتها !

لكنها سرعان ما رفعت رأسها واعتدلت فى جلستها وتأملت السقف المزخرف بالرسوم الملونة الدقيقة وابتسمت وقالت لنفسها : اليوم حياة جديدة، وعزائى هو حسين الذى بيده أن يعوضنى حنان الاب والام والاخوة والأخوات ، ثم تفتح بابا جانبيا .. ينفتح .. يخرج منه نور حسين ، ابتسامته التى تسبقه واشراقه الذى يلفه ثم يمد اليها كلتا ذراعيه، ياله من حبيب غال !

تقوم من على كرسيها وترد على ابتسامته ثم تمشى اليه ، ثم يربت على ظهرها .

ولما تفيق تسأله بصوت الأنثى المحبة الخاضعة : كنت أفضل ألا أفصلكم بعضكم عن بعض .

يدمدم قائلا : لاتفكرى الآن الا فى عائشة وحسين .. ما رأيك ؟ عيشى للحظتك ، ولا تحملى نفسك أكثر مما تحتمل .

استطاع حسين بعد أن تم زفافه فى هدوء وكتمان أن يحيل عائشة الى وردة نضرة فواحـــة العطر ، وهب لها كل مايملك من حنان وحب وهيـــام ٠

والمسكينة ـ مع ماعانته من حرمان وانطواء ـ أسلمت له كل نفسها حينما كانت تقبع تحت قدميه لتزيل الأتربة التى تغطى حذاءه ٠٠ لم تكن بالزوجة الذليلة ، أو الخادمة التى ان لم تقم بواجبها تلفظ الى الشارع بل الحبيبة أى من تمثل النصف الحلو ، وهى بحنانها ورقتها تزيل لا الأتربة فقط من على حذائه ، بل كل مايعكر صفوه من شوائب ، وهو حينما كان يدلك قدميها لم يـكن الزوج الضعيف المتخـاذل ـ بل النصف الخشن الحامى ، والرفيق الأمين والذى بهمساته وحنانه يأسر ولا يهدم بل يبذر كى يحصد ٠

وقد أفحلت وقد أفلح ومنهما أثمر الحب الأصيل ، لا الحب الطائش المشتعل ٠٠ طفلا حبيبا ٠

لم ينس حسين أن يصقل مواهب زوجته بالاطلاع والقراءة ، فحولها الى ذواقة للادب حتى استطاعت الى حد ما ـ أن تنقد أبيات شعره ، وبالرغم من أمومتها الجارفة لم تنس المصدر العريق ٠٠ زوجها الغالى ، فكانت ـ حتى فى هذا عادلة ، الطفل كان حبيبا مرحا ذكيا له نظرات مشعة لا يمكن أى فرد سواء كان أبا أو عزبا الا أن يأخذه بالأحضان ، وعلى ذلك فمن غير المعقول أن تكون جدته والدة حسين أقل من غيرها فى الاستجابة ٠

مجمد الصغير كان الطعم ٠

استرد البيت أقدام الأم (الأولى) ثم تبعتها الابنة الشقراء المدللة أخت حسين (دلال) ٠ السيدة الوالدة (بعظمتها وعجرفتها) تريد لحفيدها أن يكون منسقا مهندما حتى فى طريقة بكائه ٠

الشقراء المدللة (دلال) كان فى أخلاقها وطباعها ما للغانيات ٠

حدث شىء من الصدام بين المرأتين ، عائشة وأخت زوجها ، عائشة بالرغم من ريفيتها (السابقة) أصبحت لها لهجة عذبة راقية ، تدخل فى حديثها بعض الكلمات العربية الفصحى مما جعل المقـــارنة بين الاثنتين سافرة ٠

دلال تجيد التركية والفرنسية ، والانجليزية ، أما عربيتها (فركيكة لا تكاد تقوم على ساق) !

عائشة امرأة ذات أنوثة فياضة عارمة ، ولكنها هناك فى الداخل فى حجرة نومها مع حليلها فقط ، أما دلال الأرملة اللعوب فأنوثتها معروضة منسقة تماما كفترينة شيكوريل ، ألوان براقة زاهية صارخة لايدرى أحد : من تختص بأسلحتها ؟

وذات مساء دعا حسين بعض أصدقائه الى العشـــاء معظمهم أقارب بعيدون ٠

ليلتها دعت دلال نفسها بالرغم من حضور الزوجات ، كانت ترتدى ثوبا من القطيفة الحالكة كالليل الداكن ، وهنا ازداد لمعان أسلاك شعرها الذهبية ووضحت عاجية عنقها وذراعيها ٠

وبالكحل الفاحم ازدادت زرقة عينيها !

أما ضحكتها المتثنية المنغمـة فقد أسلمت المدعوين لأحلام سـابقة لأوانها ٠

انكمشت الزوجات وأحسسن أنهن عرايا !

أما عائشة فقـــد انبعثت من كيانها ابتسامات غير مرئية تشوبها السخرية من دلال ، لكن كان هناك واحد ، واحد فقط بغير زوجة مسلح بثقة وبمغامرات عدة ٠٠ صاحباتها من أمثال دلال ٠

وبهزة من كتفيه أدرك أنها مثلهن لولا اختلاف الملامح و ٠٠٠

ثم تمعن فى عائشة التى يراها لأول مرة ٠٠سمع عنها من قبل، وعرف قصتها وهل أمر كهذا يخفى ؟ أدرك جمال شخصيتها وثقتها فى نفســها التى تجعلها لا تلقى بكل ماعندها لمجرد العرض ٠

أحس بخطورتها النابعة من صمتها المتزن، وبنظرات عينيها السوداوين الواسعتين الحالمتين !

ثم قال لنفسه : انها كالدينامو فى مقدورها ان تنير بيتا بأكمله ، لكنها تملك خزانا يكفيها العمر كله ، ان تشخيصى لحسين ٠٠ بقى كما هو، بل لعله ازداد ، فهذا الرجل ٠٠ رجل بحق ٠

حلا له أن يستأثر باحترامها، فقد كان يعرف هذا النوع من النساء ، قال سأخاطب عقلها :

فسألها برقة : مارأيك فى كتاب المؤلف (..) الأخير ؟

ردت عليه (بأكثر رقة) : جيد لولا ٠٠ غلوه فى التشاؤم ٠٠ انه يريد أن (يجبر) القارىء على أن يعتنق تشاؤمه بغض النظر عن المنطق ، كنت أفضل أن يعرض وجهة نظره بطريقة غير طريقة (العافية) لعلنى حين ذاك وأنا أمثل احدى القارئات أن أنحنى له ٠٠ أعنى للكتاب ٠

واستدارت دلال بعصبية والغيرة تنهشها :

التحدى سافر ، وهذا الشاب بالذات يروق لها ، هيه ماذا عندها كى تتأهب للنزال ؟

ضحكت ضحكة عالية صاخبة ثم وجهت السهم لعائشة : من أين لك كل هذا الحديث ياعائشة ؟ هل يصدق أحد منكم أن ربيبة القرية تجيد التحدث بالفصحى ؟ ياسلام ياحسين يالك من صانع معجزات !

وتنبه لها حسين فأمسكها من ذراعها وهمس لها : هل أفرطت فى الشراب ؟

لكنها ردت بصوت عال : لماذا تحدثنى بصوت خفيض ؟ هل الخمر عيب أو لأن زوجتك العزيزة لاتشربها ؟ (ثم تضحك ضحكة مثيرة) لقد قالت لى من قبل : انها تنفر من رائحتها ! ها ٠٠ ها !

لم يكن من عائشة الا أن تتجاهلها حتى لاتنيلها غرضها وهو (التشويش) وبتر الاعجاب الذى كاد يولد ، ولما سكن الجو أكثر مماكان مقدرا غلى الدم فى عروق دلال فرفعت يدها البضة وفاح منها عطر غال ، وأشارت الى عائشة لعلكم تظنوننى مخرفة ! اسألوها لماذا تصر على أن تمشط شعرها بحيث تخفى جبهتها لأنها (ثم أشارت الى جبهتها) تريد أن تخفى الوشم الأخضر الذى يصرخ ويقول : أنا فلاحة ، جلفة ، فلاحة ، فلاحة !

وبأنامل عائشة الصنوبرية ــ تبتسم ــ ثم تزيل خصلة من شعرها الفاحم لتبرز جبهتها وفى منتصفها وشم أخضر مستدير كالزبيبة وتهمس : لقد ذكرتنى يادلال هانم ان الحر لايطاق ، أو لعله الدخان ، وشعرى الكثيف المنسدل يجعل عرقى غزيرا ، شكرا ٠

وبسرعة ناولت (الضيف المعجب) طبقا فيه الكثير من الحلوى وهى تقول : أريد رأيك فهو من صنع يدى ٠

ما أسرع ماتمر الايام ! عائشة الرزينة الزوجة المحبة المحبوبة ترعى

بيتها ، وزوجها وابنها الذى أتم السنتين من عمره ، من ناحية أم زوجها تبدى لها الاحترام دون تزلف ، ودلال تتجاهل حماقاتها ورعونتها ، ثم تقابل كل ذلك بابتسامة ساخرة !

الأم وابنتها يغمرها حنق لايستطيعان اظهاره ، فعائشة نعم الزوجة لا يكاد ينقصها شىء حتى نقطة ضعفها على الأقل فى نظر أهـل الزوج ـ لم تكن تحرك فيها ساكنا ، بل لن نتعدى الحقيقة · ان من أسباب شموخها أنها من قرية كل مافيها نقى طاهر ·

هكذا مرت الأيام واذا بعائشة فى طريقها لتكرر أمومتها وزوجهـــا حسين يرحب بالنبأ ويكاد ينهى لابنه البكر بأن هناك من سيرافقه بعـد فترة وجيزة فى لعبه ومدرسته وطعامه ونومه !

حسين لم يكن له عمل ·· بعض الأفدنة القليلة يؤجرها للفلاحين ، وجل وقته يقضيه فى القراءة والاطلاع حتى تكونت لديه مكتبة حافلة بآداب الغرب والشرق وعلومهما ·

فى صبيحة أحد الايام اشتكى من صداع لشدته عاقه عن القراءة ، ثم زال بعد بضع ساعات ، لكن الحالة تكررت ثم فى فترات متقاربة ·

الذى يحسم الموقف هوالطبيب ، بعد الفحص قرر أنه مصاب بضغط الدم والعلاج بعض الأقراص ونظام معين للتغذية ·

وقد علق حسين ـ فيما بعد ـ على ذلك قائلا وهو يداعب زوجته : لقد أصبحت زوجة رجل عجوز تنهشه الأمراض (ثم يرفع حاجبه الايمن ويهز رأسه هزات متوالية بطيئة) ويكمل : ليس هذا فحسب بل المال ، المال الذى نوهم أنفسنا انه عن طريقه سنسترد صحتنا وعافيتنا ببعض العقاقير والكلام الفارغ ، هذا المال ليس بكثير ·

أما ابتسامة عائشة فهى التى تجيب ، وتتبعها عذوبة حديثها وهى تقول : لقد حصلت ياحبيبى على كل ماتشتهيه نفسك من ألوان متعددة من الطعام وقد حان الوقت كى تقلل من دسامتها ، هذا الصداع انذار فقط ، أعدك بأنك فى أقرب وقت ـ ليس فقط ستسترد عافيتك ، بل ستمارس الألعاب الرياضية ! ·· يرفع رأسه ببطء ·· وبنظراته الحالمة يرنو الى لا شىء ·· ثم يهمس : ليتنى أراه ·· عائشة : من ؟ حسين يرد بوهن : ·· أخى ·· الحياة قاسية ·· فرقت بيننا ·· سافر الى الخـــارج ·· بعد أن عشنا معا نقتسم الطعام ·· والشراب ·· عائشة :·· لكنك لم تحدثنى

عنه بما فيه الكفاية • ؟ •• ويجيبها •• فيما بعد •• وربما تجيبك الأيام •• ياحبيبتي •

يحين ميعاد الوضع ، وترزق عائشة مولودة شقراء لعلها تشبه عمتها دلال ، يفرح بها حسين كثيرا ويقول مداعبا زوجه : لقد كنت منظمة جدا في انتاجك •• ولد أولا ، ثم تختمينه ببنت •• أو أنك مازلت تريدين التكرار !

وتضحك عائشة كثيرا •• وتخفي وجهها بين الأغطية •

يهرول حسين ويقول : سأتصل تليفونيا بوالدتي وأختي •

في المساء تستقبل الدار الأم الشامخة التي تعلق على النبأ قائلة (وهي ترفع حاجبيها وتسبل عينيها وتضخم من صوتها) : البنت جميلة ، جميلة جدا تشبه دلال ، لولا أن عينيها أكثر اتساعا ، لست أدري لمن ؟ آه ! لو كان في يدي أن أجعلها كما أشتهي لخرجت من تحت يدي (حتة سنيورة) ، أما دلال التي يتأرجح خصرها ويتثنى كتفاها العاجيان فتقول موجهة حديثها لوالدتها : الله ! (يا أنه) (وهو نداء الأمومة باللغة التركية الدارجة) : لو كنت أنجبت طفلة ماكانت تشبهني مثلها •

ويعقب حسين مدهوشا : ياجماعة ! ان ملامحها لم تظهر بعد ماهذه الأحــــلام ؟

وترد أمه بكبرياء : انك لاتفهم في النساء !

بعد سنوات قليلة يكمل محمد أربع سنوات من عمره وأخته مها السنتين ، وكما توقع الأهل تكتمل ملامح الطفلة وتكاد تكون صورة مصغرة من عمتها لولا أنها تبزها جمالا ، كانت (جدتها) تقول : ان محمدا أخاها فلاح مثــل •••

أما هي فنوع راق تماما كأبيها وأهله •

ازداد مرض حسين ، وكان لايواظب على تعاطي الدواء ، ولايدأب على نظام التغذية (الخفيف) •

كثر صرف المال ، وقلت عافيته •

وفي صبيحة أحــد الايام تدخل عائشــة بحرص – حجرة نومها – لتوقظه ، وتسمع شخيره لاول مرة •

فتذهل ، وتفاجأ ، لكنها تقترب من فراشه متوجسة قلقة، وتمد يدها الوجلة وتلمس ذؤابة شعره الناعم المنسدل وتلمح عرقا غزيرا على وجهه ، وفمه المفتوح نصف فتحة ، تلمس وجهه بحنان مستجد ، وتلمح عينيه مفتوحتين بنظرة ناعسة ذاهلة • ثم تظهر على وجهه ابتسامة متهالكة يحاول

الحديث ، فتقرب وجهها أو أذنها بالذات من فمه وتسمعه يقول بحروف متقطعة .. م .. ح .. م.. وم .. هـ .. ا ..أريد رؤيتهما .

تتسع عيناها ثم تسكت قلبها بأن تقول لنفسها : لا ، غير معقول ، لم يحن الوقت بعد .

ولما يلمح ترددها يستحثها مشيرا برأسه : كما قلت لك .. سريعا .. تجرى مهرولة وتأتى بطفليها ، يسرع محمد ويمسك بيد أبيه قائلا : بابا .. ماله ؟ مريض ؟ ..

أما مها فهى تجرى ناحية التسريحة بسذاجة الاطفال لتحاول تمشيط شعرها الذهبى .

تأخذها أمها وتحملها على كتفها وتقترب من حسين الذى يهمهم : الحمد لله ، الحمد لله .

لم يبق فى حجرة النوم الا ثلاثة أنفاس بعد أن كانوا أربعة تغالط عائشة نفسها بعد أن تخرج الطفلين من الحجرة ثم تواجه الحقيقة فتخفى وجهها بين كفيها وتضغطه وتنتحب نحيبا مكتوما وأمعاؤها تتلوى ولوعتها الدامية تكاد تصرعها ، ثم تنهار ويغمى عليها .

فى آخر اليوم يحل السواد بالبيت ويقام المأتم وينصب الصوان أمام المدخل .

يأتى أناس كثيرون يبكون يولولون ، وتعرف عائشة أن زوجها كان ذا مآثر للكثيرين .

تقضى بعد ذلك اليومين التاليين فى حزن عصيب ، وتحاول ابعاد طفليها عند جارة لها مع مربيتهما .

تهدأ العاصفة بعض الشىء فتصحو عائشة على ترملها ، وأن طفليها أصبحا يتيمين .

وتصحو أيضا على أن هذا البيت الذى تقطنه ملك حماتها التى أخبرتها بذلك ، ولو أنها حاولت أن تزيل الكثير من عجرفتها فان عائشة أدركت أنه لم يعد لها مأوى .

عرفت لأول مرة أن هناك أشخاصا يكونون ما يسمى (بالمجلس الحسبى) وأن عليها أن تنفق على طفليها بحساب لأن هناك من سيحاسبها .

خرجت من الدار على يمينها ابن وعلى يسارها ابنة متجهة الى حياة جديدة !



القسم الرابع



الحزن والكآبة التى ارتسمت معالمها على وجه عائشة أضفيا عليها نوعا جديدا من الجمال ، حدده الرداء الاسود والطرحة السوداء وقوامها الفارع وشحوبها ثم دكانة عينيها وأهدابها وشعرها ـ عرضها كل ذلك للأنظار حينما كانت تبحث عن سكن يخفيها عن الناس لتستطيع أن تواجه أشجانها وحياتها الجديدة ٠

اكتشفت فى فترة قصيرة بعد ترملها أن زوجها أنفق كل أمواله التى بالبنك على علاجه ، ولما استشارت محاميا تثق فيه : كيف تواجه حياتها ؟ أشار عليها أن تبيع الأفدنة وبالمال تستطيع أن تستثمره بحيث تشرف عليه بنفسها فالأرض من العسير جدا أن ترعاها وتلم بأسرارها وعلى ذلك فقد اختمرت لديها فكرة ٠

بعد أن استقرت بها الحال فى طابق أرضى من حجرتين متلاصقتين وصالة وحمام ومايتبعه استطاعت أن تنفرد بنفسها لتقرر كيف ؟ وأن تستثمر المال الذى أصبح فى حوزتها بعد بيع الأفدنة ؟

تخيلت نفسها مع طفليها فى بيت تملكه ، الله ! ماأحلى أن يعيش الانسان محتفظا بكرامته طيلة حياته !

لقد تنقلت المسكينة من هنا الى هنا ، الى هناك وهى فى كل ذلك فى كنف الآخرين ٠

تأملت ماحولها : سريرا عريضا من (النيكل الفضى) يبدو أنه سيكون من نصيبها وسريرين آخرين من النحاس الذهبى ، وتسريحة ومقعدا يبدو أنه مريح وشماعة عالية كالنخلة فروعها تكون هيئة الوردة المستديرة تتلقى كل مايلقى عليها مصنوعة من الخشب البنى الزان ٠

و « كوميدينو » من نوع خشب الشماعة يفصل بين الأسرة وعليه صورة للمرحوم ٠

تشكيلة متباينة من قطع الأثاث الا أنها متجانسة بحكم الظروف ٠

وهناك فى الصالة كنبة بين البلدى والاسطامبولى ليس فيها ما يميزها الا الراحة تجلبها لكل من يجلس عليها حتى ان عائشة نفسها كانت تفضل النوم أو الجلوس عليها أغلب الأوقات ٠

الشقة خالية من الكهربا والانارة كان يستعاض عنها باللمبات الغاز ٠

أحست عائشة تماما أنها صاحبة رسالة كبيرة فى عنقها وأنه لم يعد لديها فى الحياة سوى طفليها ومبادئها ٠

سألت أهل الحى عن مقاول حسن السمعة ماهر فى مهنته كى تبنى بيتا يأويها هى وطفليها من مال حلال تركه لها زوجها ولو كان يعلم لكافح وعرق وجاهد حتى يكثر ماله وبذا يضمن لها حياة أكثر راحة وأكثر استقرارا ولكن من منا يعلم ماسيأتى به الغد ؟

تفننها واجادتها طهو الطعام أضفيا على ولديها صحة وسعادة ، ثم مهارتها فى الحياكة جعلتها تقسم أثوابها الى قطع مصغرة تكون فى النهاية طقما أنيقا لمحمد وأثوابا بسيطة منسقة لها ٠

استطاعت أن تتخطى العقبات بأن تعد لقمة نظيمة يلتهمها أطفالها بشهية وسعادة ، أما هى فكيف كانت تقضى أوقاتها ؟ تتناول الكتب القيمة من مكتبة المرحوم فتنهل منها بشغف ٠

تمضى بضعة أشهر فى محل اقامتها الجديد ، ثم تجيئها الحاجة حسنية من البلدة معزية مهدئة زائرة ٠ فى هذه المرة تصحب معها ابنتها سيدة التى تزوجت ثم طلقت تحتضنها عائشة وتمتزج دموعهما وابتساماتهما وأشجانهما معا ، كل منهما تحكى ، وتتنهد ، ثم تواجه اليوم بشجاعة ، تقول سيدة التى لم تعرف شيئا من أمرها منذ طفولتها :

ـ لم أنجب ياست عائشة وهذا فى بلدنا عار ، تزوج على فرضيت ، ثم أتى بها عندى فى الدار فرضيت ، ولما أنجبت غريمتى وطالبتنى أن أرعى طفلها رضيت ٠

أما هو زوجى فقال لا أستطيع أن أطعم ثلاثا ، وعلى ذلك لم يرض فطلقنى وتلقفنى بيت أبى والمرأة المطلقة (ثقيلة) حتى لو لم يكن معها (عيال) ٠

تأملتها عائشة مليا وتذكرت أنه قد حان الوقت كى ترد بعض الدين الذى تدين به لتلك العائلة الصغيرة : سيدة كانت لها أختا أكثر من شقيقة ، كم داعبتها وسلتها ، وطيبت خاطرها ، وتوسطت لدى أبيها كى بغدق عليها بعض الفطير والحلوى •

تقول عائشة مشيرة بأصبعها نحو عينيها الحلوتين :

فى هذه العين ماء ، وهذه العين زاد •

واحتضنتها وامتزجت رائحة الكولونيا برائحة الحلبة وأسلم قلب نفسه الى قلب آخر يبزه حنوا ورقة •

تتميز سيدة بخفة ظل ومرح ، وأحيانا المصائب تضفى على أصحابها نوعا من المكابرة ثم الاستخفاف والتحدى ، تخطت سيدة كل مصائبها وأحالت الجو الذى يحيط بالأسرة الصغيرة الى مرح وانشراح •

شاهدت عصر اليوم رجلا يرتدى الملابس البلدية ويتعمم بعمامة أنيقة يستأذن فى الدخول ويستهل حديثه قائلا : يا ساتر ، ثم يتنحنح بطريقة كأنه يفتل شاربه • أحس بأن جو البيت المتواضع فيه أنفاس الحريم المعطرة •

أعاد سعاله ، وتكتم سيدة ضحكة فى نفسها ثم تشير اليه أن يجلس (فى حجرة المسافرين) ، وحجرة المسافرين هى الصالون بلغة أهل سراى فريد باشا ، المقعد من القطيفة الحمراء الداكنة بلون الطربوش ، فى ذلك العصر ، مطرزة (منها فيها) بورود دقيقة رقيقة تجد كل مقعد متجها اتجاها معينا فى وقار ، والصور لا يوجد منهسا سوى صور للمرحوم فى أول شبابه وفى رجولته وفى طفولته ثم صورة واحدة مختلفة هى صورة السيدة الجليلة أم حسين تتأملها سيدة ولا تملك نفسها من الابتسام المشوب بالسخرية (حتى فى شبابك شايلة الدنيا على دماغك جتك الغم!)

المقاول بدوره يتأمل الحجرة ، تهون عليه سيدة بقولها : الست عائشة لن تتأخر عليك ، ستأتى حالا ، وبعد دقائق تدخل عائشة غلافها الاسود يكاد يغطيها ولا يظهر من هذا السواد الا وجه فى استدارة القمر وبهائه وابتسامة حانية تسبقها تقطر اعياء وحزنا ، يبهر المقاول لمرآها وينحنى مسلما •

يقول بادئا الحديث : الجماعة جيرانكم حدثونى بشأنكم (وهو

يتعمد صيغة الجمع رافعا شأنها مستدركا أنهـا من النساء اللائى يجب عدم مخاطبتهن بصيغة المفرد) وأنا تحت أمركم ٠

تقول عائشة : شوف ياحاج (ولم يكن قد حج بعد) : أنا أملك (كذا) وأريد بيتا من طابقين و ٠٠٠

ويقاطعها محرجا : انه يكاد لا يكفى طابقا واحدا ٠

فتقاطعه : كيف ؟ لقد استشرت محاميا ماهرا وهو الذى حدد لى القيمة ٠

يمسك المقاول (المسبحة بين يديه وهو يكاد يسحقها) المحـــامى ياست هانم يفهم فى القضايا ، لا فى أعمال البناء (ثم يشير الى رأسه) لقد شاب شعرى وأنا أعمل فى هذه المهنة ٠

ثم يحاول القيام من على كرسيه مرتبكا بصـورة احتجابية : والله ياست هناك كثيرون يستطيعون (الكلفتة) و ٠٠٠

وباشارة من يدها تقول : لم يحدث الا الخـير ياحاج (ويبدو أن لكلمة الحـــاج فعل السحر) فسرعان ما استعاد جلسته وخاصة عندما شاهد سيدة وهى واقفة أمامه بالصينية الفضية وعليها كوب زجاج مغلف بكاسة من النحاس الاخضر الجميـل مملوء بالكازوزة ، تستأنف عائشة الحديث قائلة :

قلبى يحدثنى بأنه ستكون بيننا معاملة طيبة الى مدى طويل وخاصة أن المال مال يتامى ٠

يتألم الرجل ويدير رأسه فى عدة اتجـــاهات ، وفى الحال تكمل عائشة حديثها : لى رأى هو أن لو سمحت وتكرمت أن توافقنى على هذا الاقتراح فهو قطعا لن يتم تنفيذه الا بمعاونتك وبعض تضحياتك ٠

أتخيل الطـــابق الاول بعد أن ينتهى سنؤجره مفروشا وفى كل شهر أسدد لك الدين ٠

وتتسع عينا المقاول فيسألها بأدب : أى دين ؟

عائشة : أنوى أن أبنى طابقا ثانيا كما قلت لك من قبل انه حلمى ستتكفل أنت بالدفع ، أعنى مصروفات البناء ، والسداد منى سيكون على هيئة أقساط شهرية تحصل عليها من الايجار ، هيه ما رأيك ؟ أما الفائدة المادية فلك أن تحدد قيمتها بنفسك ٠

الرجل ــ بعد أن انعكست عليه أجواء البيت : كآبة ، حزن ، وأخيرا كفاح امرأة لا سند لها الا مثابرتها ــ يجد نفسه يقول دون أن يدرك : حاشا لله ياسيدتى لن آخذ مليما واحدا فان (الربا) حرام وأنا لى أولاد !

هى الاخرى لا تدرى ما الذى دفعهـــا وهى (صاحبة الوقار) أن تهرول ناحيته محاولة تقبيل يده !

فاذا به يقوم ملسوعا من على كرسيه (ينفض) حبات مبسحته مدمدما: أستغفر الله ، أستغفر الله .

المكان أرض فضاء ، ملأى بالعمال (البنائين) بعضهم يحمل (القفف أو المقاطف) على ظهره يرتدى (فى عز الحر) شيئا يشبه الفانلة وسروالا اصبح لونهما يميل للرماد بعد أن كان يميل للبياض .

تجمع بين العمال أغان شعبية حماسية تحثهم على العمل والنشاط ، وهنـــاك فى ركن قصى تقبع السيدة عائشة بسوادها (ومظلتها) التى تظللها . تجلس على كرسى خيزران وبجانبها المقاول الذى لفحته الشمس وتصبب منه عرق العافية .

يقول لها هامسا : هاك ياسيدتى (المونة) التى تمزج بين طوب البناء بعضه وبعض . تعمل كالآتى : المقادير واحد مونة واثنان من الرمل ، ثم يشير بيده : ها هو ذا (الواد عبده) ينخل الخليط على شكل هرمى ، ها أنت هذه ترين الهرم يعلو ، ويعلو ويعلو غدا ان شاء الله يكون معدا للاستعمال آه على فكرة ! يجب رشه بالماء اليوم ولا يمس (باذنه تعالى) الا فى الصباح .

تتأمل عائشة عيدان الحديد النابتة فى أول البناء وتهمهم (فى سرها) : اللهم اجعله بيتا طيبا مباركا يحميني وولدى .

المنظر يتكرر ، عملية البناء تتجدد ، الطابق الاول يبـــدو جنينا ، البهجة والتفاؤل ترتسم على محيا عائشة :

محمد ومها هناك فى الشقة المتواضعة ترعاهما سيدة الوفية بعد اشهر قليلة تتقدم حياة الجنين ، ترى عائشة تكلف المقاول شراء الاخشاب اللازمة . تقـــول فى حديثها : اسال لى على الاسعار لا تقدم على عملية الشراء الا بعد أن أدبر أمورى .

تحاول من ناحية أخرى أن توسط النجار فى العملية نفسها حتى تحصل على السعر المناسب •

عندما ترجع الى عشها تحتضن صغيريها •• تكتم دموعها •• تتأملهما، الولد لا تفارقه ابتسامته الملائكية ، البنت لا تشبع من الغوص فى أعماق ملامحها ، ثم تتيه فى عالم غير مرئى تناجى حبيبها الذى لن يعود وتسأله: أعدك اننى سأواصل كفاحى، أنت أستاذى ، مرشدى ، معلمى ، أبو ولدى: محمد يبعث اليك بقبلاته ، أما مها فهى تبلغك ثناءها •• الأيام تنبئها بأنها ستكتسح عالم المرأة والرجل معا !

أما أنا يا حبيبى فلم يبق منى الا عقل يسيطر على كل شىء وجسم أضناه التعب يعيش فى زهد مستحب •

لقد ترفقت بى العناية الالهية فبعثت لى رفيقة حنونا لازمتنى طفولتى الحالكة فى شبابى ، ثم فارقتنى لأنك ملأتنى مما أشبعتنى وفاض حتى أصبحت أتزود منه حتى الآن •

فى المساء عندما يلامس جسمها الحار فراشها البارد تتلفت يمنة ويسرة ، وفجأة تقوم باضطراب تجس جبهة محمد ويد مها الطرية الدقيقة وعندما تتأكد من حرارتهما الطبيعية •• تنام •

معظم أحلامهـا •• البيت المكون من طابقين يعلو ، يعلو حتى يكاد يناطح السحاب •

محمد يمسكها من ساقيها يحتضنها ، يقبـل ركبتيها ، مها ترنو اليها بمكر (طعم) •

حماتها تراها دائما فى حجم الطفلة ، مشعثة الشعر تضحك ببلاهة وتشير اليها قائلة : ياذات الوشم الاخضر سينهار بيتك لانه من الطوب الاحمر ، هذان الولدان من نصيبنا فى سراينا •• عليك اللعنة •

أما حسين فهو دائما فى أردية بلون الفل تسبقه ابتسامته المشعة يضع يده على رأسها ويهمس اليهـا • سيرى يا عائشة الحبيبة فى طريقك ، انت قوية ••لقد علمتك القوة ولقنتك أسرارها•• أديرى ظهرك للحساد •

وكثيرا ما تتغير صورة حسين وتحتلهـا صورة محمد فتراه رجلا مكتملا •

وكثيرا أيضا ما تسأل سيدة عن تفسير أحلامها •

فتضحك الشابة الطيبة وتقول لها مازحة : انك (من يومك ٠٠ منذ أن كنت طفلة لا تحكمين الأغطية) ٠

ثم تستأنف حديثها جادة : كيف حال البناء والمقــاول الطيب ؟ تبتسم عائشة وتتذكر أنها قريبا ستصبح مالكة ٠

ثم تتنبه للسؤال فترد : بدأنا فى (تبييض الجدران) ولقد نبهنى المقاول فى حالة تغيبه أن أراعى من اكثار كمية الشبة والملح حتى تضمن تثبيت البياض ٠

سيدة وهى تفترش الارض وتضم شعرها فى منديل أبيض تتساقط منه ضفيرتان نصفهما السفلى مجــدول بشــعر مستعار بنى قاتم تقول وغمازاتاها تزدادان غورا : ياست عائشة (الله يديك العافية) لقد ألممت بأسرار البناء ٠

ترد عائشة جادة : ليست كلها ٠

تمصمص سيدة بشفتيها : والله عال ٠ دعى المقاول ياكل عيشا ٠

تمضى بضعة أشهر طويلة ، ينمو محمد ، ومهـــا ٠٠ يزداد هزال عائشة ، وترتسم دوائر سوداء تحت عينيها كما يتضح شحوبها ٠

تفكر فى أن الطابق الاول لم يبق على انتهائه الا القليل وهى قد قررت أن تؤجره مؤثثا ، تسأل سيدة قائلة : عندى بعض المجوهرات التى تركها لى المرحوم حسين أريد أن أستبدل بها قطع الاثاث ما رأيك ؟

يزداد اتساع عينى سيدة ثم تخبط صدرها بيدها قائلة : ياندامتى ياستى هل نسيت أن لك ابنة ؟

عائشة بسذاجة : ماذا تعنين ؟

ترد سيدة بلهـــجة الأم الناصحة : المرأة بدون جواهر لا تساوى شيئا ! عندنا مثلا فى الفلاحين الشرط الاول للعروس أن تتحلى بالذهب ٠

تهز عائشة رأسها هزات متوالية وتبتسم ابتسامتها المتزنة وتهمهم : يبدو أننى من عالم آخر !

تتم عملية البيع ، كأن سيدة لم تكن الا كما يجب أن تكون الطرف السلبى ، تشترى عائشة أثاثا يصح أن يطلق عليه (فاخر) (عليه القيمة)

ثم تجتمع بالمقاول بالشقة وتسأله : ما رأيك ؟ هل تذكر حديثى ؟ بشأن الطابق الثانى •

المقـــاول يفنط مسبحته بتؤدة : يخيـــل لى أن أبدأ أنا بشكرك ، مشروعك رائع لولا •• لولا ••

ترد بلباقة : نعم ، وأعترف ، أعترف بأنه لولاك لضاع كل شيء •

المقاول : ذهنى بعيد عن هذا ، أريد أن أقول : كم أتمنى أن يوفقك الله فى مستأجرين طيبين يحافظون على الاثاث الذى من أجله بعت الكثير!

تهتم بحديثه الذى فاجأها به : من أدراك ؟

يقرب رأسه منها قائلا : هناك طريقتان لجلب المـال وأعتقد انك تمثلين الطريق العفيف •

ترد : كل شيء يهون فى سبيل الخير ، هيه ياحاج ، لم ترد على بعد؟

المقاول : كيف أرد وأنت الآمرة الناهية ؟

المؤجرون •• رجل أعمال من الشام وزوجه لم ينصفهما الزمن فى انجاب أبناء على خلق حميد ! بعد اتفاقات تتخذ أحيـــانا بوادر الثورة ثم تهدأ فتتحول الى مساومة ، كل طرف منهما يدعى الاخفاق •• الاتفاق الأخير هو ستون جنيها شهريا •

العام حوالى ١٩٢٧ ، محمد التحق بروضة أطفال الحى ، كان هادئا حالما رقيقا كأبيه •• تكاد عينك لا ترى سواه بين أترابه •

كثيرا ما ذهبت أمه الى المدرسة لتتعرف أحواله فتقول لها الناظرة : انه ذكى كما يبدو نبيلا لولا •••

تستحثها أمه فتسألها : لولا ماذا ياسيدتى ؟ طمنينى أنا أمه وأبوه!

تتأملها الناظرة بحنو وتقول : يبدو ضعيفا على أية حال •

(حكيمة المدرسة) فحصته و •••

عائشة بلهفة جنونية : ماذا وجدت ؟ ماذا أصابه أبخير هو ؟

الناظرة : يالك من أم ! اطمئنى كل ما فيه سليم ، لعلك لاتخرجينه كثيرا فى الهواء والشمس ، هل لبيتكم حديقة ؟

وتسرح عائشة بأفكارها وتقول : سيكون ، سيكون ، هناك لبيتنا الجديد ٠

الشيء الذى تحبه تستبطىء كل شيء يطوف به ٠٠ لقـاء الحبيب ٠٠ السفر الى مكان له ذكريات ٠٠ كل ذلك تطول دقائقه فتتحول الى ساعات، حتى الطابق الثانى فى عمر عائشة استغرق أكثر من العام مع أنه تم بناؤه فى مدة أقل من الطابق الاول ٠

نراها تجمع حاجاتها وتنتقل مع ولديها ورفيقتها سيدة الى الطابق الثانى الذى شاركت فى بنائه بدموعها وعرقهـا ، دعواتها ، صمودها بمظلتها يوميا فى أثناء بنائه حتى اكتمل ، كانت تقول دائما : لى ثلاثة أبناء أحد الثلاثة عملاق شامخ لا يشيخ ! ٠٠ متى ترى ولديها فى بعض علوه؟

لم يبق على سداد الدين الا القليل ثم تصبح مالكة حقيقية ٠

أدخلت الكهربا فى الطابق الثانى واشترت ثلاجة متوسطة ولو أنها لم تستطع الاستغناء كل الاستغناء عن القلل القناوى ، الستر تفننت فى تطريزها وبذوقهـا الرقيق صنعت من تموجاتهـا ما يكاد يشبه جنات الاساطير ٠

تذكرت أقوال الحاجة حسنية ونصائحهـا الماضية : تلقنى أسرار التطريز والحياكة والطهو ، نعم ٠٠ الظروف اقتضت منهـا أن تهب كل مواهبها ٠

لم يعد هناك ما يستحق التسجيل طوال الاعوام التالية سوى أن عائشة قد سددت كل دينها ، والمستأجرين تغيروا وتبدلوا ، أما تحصيل الايجار فهو لم يدخل جيب المقاول لكنه انتقل الى دفاتر البوسطة ٠

سيدة طلبها عرسان كثيرون ، رفضت ، وبما لأنهم ليسوا أفضل من الاول وربما بسبب وفائها لقرينة صباها ٠

عائشة ازداد جمالها بالرغم من ارهاقها وحزنها الدفين الذى أصبح من مميزات صفاتها ، وعلى ذلك فان (محمد) الطفل اليافع قد جاوز الآن الثانية عشرة من عمره ومها فى السنة العاشرة من عمرها ٠

تقرير المدرسة : محمـد ذكى مرهف الحس تبرز مواهبه أكثر فى الموسيقى والرسم ٠

مها : لعوب متكاسلة بالرغم من ذكائها المفرط ‧‧ تقديراتها متوسطة الا أن نبوغها تجلى فى الالعاب الرياضية ‧

ثم سرعان ، سرعان ما تطول قامة محمد وكذا مها بعد بضع سنوات أخر‧‧ فى أثنائها كان محمد يسأل أمه عن والده ! وبالرغم من تضحياتها واعتصار نفسها فهو لا يقدر على كبح جماح نفسه من أنه يحن الى أب الى والد يلقنه دقائق دنيـــا الرجال الا أنه استطاع أن يكون زوايا شخصية أبيه من خلال كتبه التى فى المكتبة ، ومن صوره طوال مراحل حياته ، ومن ملابسه وأدواته ثم والأهم ‧‧ من سرد أمه بكيانها الدافىء الحنون ‧

ليس له خال ـ كما أطلعته أمه ‧ أما أهل أبيه ، أهل أبيه ـ فكيف غاب ذلك عن باله ؟

هيه ! فليسأل أمه فى ذلك ‧ قال لها : ترى ماسبب القطيعة التى بيننا وبين آل أبى ؟

ويبتسم الوجه الابيض السقيم وترد عائشـــة قائلة : ليست هى بالقطيعة يابنى ، انما الايام و ‧‧‧

يقاطعها محمد بحماس: استطعت أن أستخلص من أحاديثك المتقطعة عنهم أننا في واد وهم فى واد ! ‧‧ عائشة (وقد رجعت بهـا الذكرى الى الوراء) ‧ أتعرف يامحمد كيف نشأت (أنا) ؟

يتململ الابن ويعتوره قلق ‧‧ يتغلب عليه حب الاستطلاع فيهمس لها : لقد كافحت كثيرا يا أمى ‧

لكن التفاصيل لا أكاد أعرفها ‧

تغضى عائشة نصف اغضاءة وتولد ابتســامة جديدة على محيـاها فتقول وكأنها تناجى الدنيا كلهـــا : هذه التفاصيل التى تحدثنى عنها بسذاجتك الحبيبة فيها كل الاسرار ! محمد ‧‧ ثم تقترب منه وكأنه مازال الوليد الذى توسد أحضانها ودفن رأسه الصغير الحبيب الى صدرها ‧‧ قلبى الآن مفتوح على مصراعيه ‧‧ ماذا ستصنع بى ياحبيبتى لو عرفت ؟ لو عرفت اننى كنت أحصل على لقمة عيش وأنا أعمل ‧ !

يطمئنها الحبيب ويرفع يده يربت بهـــا على ذراعها قائلا : ان من لا يعمل لا يساوى شيئا ، أتظنين هؤلاء ، هؤلاء الذين يتربعون على الشلت أفرادا لهم كيان ؟ بل هم تنابلة السلطان !

تتنهد عائشــة وتزفر زفرة حارة تكاد ترى دخانهـــا ثم تستأنف حديثها الذى أخذ يتدفق : كنت أعمـــل خادمة يابنى ، كنت أخدم قوما لا يقلون عن منزلة أهل أبيك ، لقد سألتنى أختك أكثر من مرة : لمــاذا ترى هذا الوشم الاخضر الذى يقسم جبهتى ؟ لم أستطع أن أرد عليها ، أتعرف لماذا ؟ لانها لن تفهمنى ، أما أنت فكأننى أحدث أباك أو أحدث ..

وتسقط منها دمعتان تظهران على حجرها ، ورويدا رويدا تزحف يد الابن تتحسس أصابعها فى حنان دافىء مشارك ، ثم ينحنى ليقبل أناملها ويهمس : أحترم تلك اليد التى أزالت أقذار الآخرين .

تمتد يدها الاخرى لتعبث فى ذؤابة شعر الصبى .

لكن فى بطء تتخلل الشعيرات ميـــاه دموعهـــا الحارقة لتروى من جديد .

مها الصبية الحلوة المشـــوقة الرائعة الحسن لا تمل المكوث أمام المرآة ، لكنها لا تكتفى فهى تهوى التصوير ، تصوير هذه الطلعة التى تتجدد كل يوم بحسن جـديد تملك عشرات الصـــور الفوتوغرافية فى أوضاع مختلفة ، وقد أهدت منها الكثير للصديقات بعضهن يتنهد حسرة ، وبعضهن اعجابا .

تقفز هنا وهناك ، وتنادى أمها قائلة : ماما ، ماما ، أريد أن أسألك سؤالا :

ثم تشير الى مجلة مصورة وتفتح أوراقهـــا وتتخير صفحة ثم تضع أصبعها تحت صورة معينة وتقول: أقريب أبى هذا ؟ تضع عائشة عويناتها وتنعم النظر قائلة بهمس : غير معقول !! تضحك مها ضحكتها ذات الجرس وتقول : لقد ازداد اللغز غموضا ! ماذا تعنين يا أمى ؟

عائشة وكأنها تهمس لنفسها : انه ، انه عمك !

تصفق مها بيديها وتقول : انه يبدو ثريا من طبقة الذوات ألا ترينه يا أمى ينزل من على سلم الطائرة وهو آت من أوروبا ؟ هل يمكننى يا أمى أن أسافر بالطائرة ؟ . آه ! هناك رحلة ستنظمها المدرسة للموهوبات فى الرياضة (ثم تزم شفتيها المكورتين الحلوتين وتمطهما وتشير الى صدرها بكبرياء ، فى يوم ما سأكون صاحبة شأن آه ! لقد نسيت لماذا لا نزورهم يا أمى ؟

تفكر عائشة فى الحديث الذى دار بينها وبين ابنها من مدة قريبة وأنها أطلعته على خبايا حياتها ، وما يأخذه البعض عليها من أنهـا ريفية فيجب ألا تنسى نشأتها وتطمع فى مستوى أرقى .

ترى لو كانت تنتمى لهذه الطبقة التى ينعتونها بالذوات فهل كان فى استطاعتها أن تبنى بيتا يأويها هى وولديها ليدر عليهم مالا حلالا مدى الحياة ؟ وهل لو كانت منهم كانت تتزود بالاطلاع والقراءة والتحصيل لتتحدث بأكثر من لغة وتطلع على معلومات ؟ فبعض (رجال طبقتهم) لا يعرفونها ولا نقول سبقتهم اليها ، وأخيرا تتنبه لسؤال ابنتها فتقول برزانة : ماذا تقترحين يا مها أن نبدأ نحن بالسؤال ؟

تزوم مها قليلا ثم تقول : هل يعرف عمى أن له ولدى أخ ؟

تبتسم عائشة ابتسامة لها معناها وتقول : لعله لا يعرف أن أخاه تزوج !

ثم ينطلق السؤال الذى انتظرته عائشة سنوات وكم أخافها :

لو فرض أن هذا حق فلماذا لم يطلعوه ؟

وترنو عائشة الى ابنها الذى كان يجلس فى الركن وتبتسم ويبدو أن محمدا قد فهم الكثير لأنه أجاب أخته : ألا تعلمين أننا من طبقة تختلف تمام الاختلاف عن طبقتهم ؟

وبتحد يشوبه التعجب يسأل : كيف يكون هذا ؟ أليس أبى أخا هذا الثرى الوسيم ؟ ثم يشير باصبعه الى الصورة .

ويبدو محمد عصبيا وهو يقول : ألم تسمعى أن هناك أخوين أحدهما فقير والآخر غنى ، ثم شيئا آخر : أمى ؟

مها باضطراب : مالها ؟

محمد محتدا وكأنه يدافع عن شىء خفى : ليست من طبقتهم انها من الريف ومن عائلة متواضعة .

مها وكأنها لا تدرى ماذاتقول : لماذا ياأمى ؟

هنا ترد عائشة : ماذا تعنين ؟

مها بسذاجة تحمل فى طياتهـا الكثير : ماالذى جمع بينك وبين أبى وانتما من طبقتين مختلفتين ؟

ترنو عائشة الى محمد (ثم تخرج من الحجرة) ٠

محمد يضع ساقا على ساق وينعم النظر فى وجه أخته ثم يقول لها: تعالى هنا بجانبى ، اسمعى ، أمى أو أمنا أغلى مالنا فى الوجود (أرجوك لا تتأففى) واسمعينى للنهاية ٠ أقول اسمعينى ، لاننى أريد أن أطلعك على دقائق حياتها، يجب أن تعرفيها سواءاليوم أو غدا، هذا الثوبالذى ترتدينه وتغيظين به صديقاتك من عرق أمى من صنعها ، لولاها فربما كان مأوانا الرصيف !

انها صاحبة فضل علينا ٠

مها : كل أم تفعل ما فعلته ،

محمد : وهو يمد عنقه وتبرق عيناه : لا ٠٠ معظمهن ٠٠ اما أن تهمل أطفالهـــا أو تتزوج بعد أبيهم وخاصة اذا ترملت فى سن مبكرة وكانت ذات جمال خلاب ٠

مها (وكأنما قد سئمت الحديث الذى اتخذ شكلا جادا) : كنت أفضل أن تكون من طبقة أبى ٠

ثم استدارت ناحية أخيها وهى تقول محذرة : أرجو ألا تسمعنى ٠

يقول محمد : اما أنك غبية أو أنانية أو ربما الاثنتان معا ، أمك تفهمك جدا بطريقة لاتتصورينها ٠٠ أو ليست أمك ؟

وقت الظهيرة ترجع مها من مدرستها وترمى بحقيبتها على اول مقعد يصادفها فى صالة الشقة ثم تزيح خصلة من شعرها المتموج الذهبى من على جبهتها لتمسح بعض حبات العرق وترتمى على مقعد آخر مريح وتضطجع متنهدة ثم تصرخ بأعلى صوتها : دادة سيدة ، دادة سيدة ٠

تهرول سيدة كالمجنونة وتكاد تتعثر فى طرف السجادة تضحك مها بصوت عال وتقول : لماذا أنت بلهاء يادادة ؟

تتنهد سيدة وتقول : الله يسامحك ، المهم لماذا تنادينني وكان بالبيت حريقا ؟

مها : هاتى لى زجاجة كازوزة من تحت ٠

سيدة ناصحة : وجبة الغذاء التى لم تتناوليها حتى الآن أهم وأفيد٠

تصرخ ثانية : قلت لك هاتى الكازوزة !

سيدة وهى مدبرة : كازوزة ، كازوزة !

يأتى محمد صاخبا : ما هذا الصراخ يابنت ؟ انك قليلة الادب والحياء والحقيقة أن الخطأ الوحيد الذى وقعت فيه أمى أنها دللتك .

مها (وهى تخرج لسانها) لماذا أنت غيران ؟

ينظر اليها شزرا : مغفلة .

تقول باتزان : عندى لك مفاجأة .

محمد : ....

مها : انك لاتليق وأنت تتخذ صورة الرجل الرزين ، على أية حال لولا أخلاقى العالية ما حدثتك بهذا : لقد اتصلت تليفونيا بعمتى .

يستدير محمد ناحيتها قائلا : كيف تجرأت ؟

هى بصفاقة : أليست عمتى ؟

محمد : أو لم تحسى بها الا الآن فقط ؟ أين كنت طوال السنوات الماضية .

مها : كنت طفلة صغيرة أما الآن فقد نموت وصرت « عروسة » .

محمد : يالك من سمجة ! ثم لماذا لم تستأذنى أمى ؟

مها : لأنها كانت سترفض قطعا ، ما هذا الذكاء ؟

محمد : وكأنه لايبدى اهتماما : ما الحديث الذى دار بينكما ؟

مها : (وقد أحست بأنها انتصرت فى هذه الجولة) أو تريد أن تعرف ؟

محمد : ....

مها : حسنا ، لقد فرحت بى جدا وناشدتنى أن أزورها فهى فى شدة الشوق لرؤيتى ، لانها لم تشاهدنى منذ أن كنت طفلة .

محمد : ساخرا : هية ! شدة الشوق ! ثم (حدد اليها البصر) أو لم تسالك عن أمى ؟

مها : لست أذكر تماما ، لكنها سألتنى عنك .

محمد : فيها الخير والله ، وكيف حال جدتى ؟

مها : قالت انها متوعكة قليلا ٠

محمد آه ٠٠ متوعكة ! مسكينة ! لعلها الشيخوخة ٠٠ والآن ما الذى تنتوينه ؟

مها : سأزورهم طبعا ، لقد وعدت عمتى ؟

محمد : أخطرى أمى فربما كان لها رأى آخر ٠

مها : مهما كان رأيها فسأذهب ٠

محمد : وهو يلوى يدها : لن تذهبى الا بموافقتها ، أتفهمين ؟

لقد وضحت الآن شخصية كل من الولد والبنت : محمد ورث النبل ، الاصالة ، الايثار والتضحية عن أمه وأبيه على التوالى ، مها بحسنها الرائع تكاد تكون ابنة شبيهة لعمتها بخيلائها وشغفها بالمظاهر والسطحية مع أن نشأتها وبيئتها كانتا عكس ذلك : فمنذ أن شاهدت صورة عمها بوسامته وحسن بزته دخل فى روعها أنهـــا يجب أن تكون منهم من هؤلاء القوم لا ينقصها شيء فهى أنانية جميلة بكبرياء تجيد التحدث بأكثر من لغة أجنبية فلماذا لا تغامر وهى فى مطلع صباها لتتصل بأهل أبيها الذين تحبهم وتفاخر بانتسابها اليهم ؟

أما أمها الحزينة المغلقة دائما بارديتها القاتمة وقلمها وأوراقها التى لاتفارقها فهى دائما اما أن تقوم بعملية ضرب أو طرح أو جمع لتحصل منها فى النهاية الى تنهيدة ارتياح أو يأس !

محمد (الأبله) الذى يعيش فى دنيا لا تعرفها يتجاهل صـــديقاتها المليحات ولا ينبهر بالصور الخليعة للفنانات المشهورات بالاغراء ، فهو لن يفهمها ولن تفهمه لقد حانت الفرصة فلم لاتنتهزها ؟

هاهى ذى تنادى على تاكسى بعد أن ارتدت أجمل ماعندها من أثواب وأطلقت شعرها الذهبى المتموج على أكتافها الا أنه استرســـل حتى كاد يغطى ظهرها واستأذنت أمها الحزينة فتعطرت من أحسن عطورها .

وأخيرا ها هو ذا البيت ، البيت ! هيه انها سراى ! هيه ! قيل لها : انها ولدت فيها ليتها ترعرعت فيها ، الجرس يدق ، ويظهر سفرجى حالك السواد ناصع بياض الثياب ما أجمله ! أسنانه البيضاء تحييها ، الصالون يحتويها ، ما أجمل تحفه ! ذهبه ! خشب أثاثه المتموج المنحوت الالوان المتباينة ! الله ! ها هى ذى صورة أبيها ٠ وصورتها مع أخيها محمد وهما

فى وقت الطفولة ، أمها لا أثر لها بينهم كما توقعت ، تتنبه فجأة الى خطوات رقيقة رشيقة تخطوها امرأة فى عمر أمها تبالغ فى زينتها شـعرها أصفر ذهبى لامع ليست فيه شعرة واحدة بيضاء !

غريبة ! ولكن لماذا غريبة ؟ ربما الغرابة عند أمها فقد ازداد شيبها وخاصة السنوات الاخيرة أما العطر فيضرب عطرها الذى استعارته من أمها على عينه ، ها هى ذى تهب واقفة وابتسامة واسعة تملأ وجهها ثم تحتضن عمتها وتقول : أهلا طانط • ترنو اليها دلال هانم وفى الحال ترجع بهـــا الذاكرة الى أيام صباها الا أن هذه الصبية تبزها نضارة •

تسالها برفق : كيف حالكم ؟

مها : عال يا طانط ، ولنا بيت نملكه •

تبتسم دلال ابتسامة خبيثة وتهمس •• كان أبوك رجلا حكيما •

فترد سريعا : بل أمى يا طانط ، لقد صنعت المعجزات ، تعلمين أن أبى لم يترك شيئا يذكر وبدل أن تعقب دلال تسألها :

كيف حال محمد ؟

مها : ماما تقول : انه نسخة من أبى •

دلال : كأنما تحدث نفسها : أحسست بهذا وخاصة عندما شاهدتك بمفردك •

يقطع الحديث دخول رجل وسيم عرفته مها فى الحال ، انه العم العزيز أو الطعم الذى جذبها الى هذه السراى يمد كلتا يديه اليها بل انها تكاد ترى شيئا يلمع فى عينيه لاينسكب ، ابتسامتها تزداد اتساعا يهمس لها كهمس الورد : انت ابنة حسين ؟ حسين الغالى ، كم عز على فراقه ! لقد كان نعم الأخ •

مها : متشجعة : شكرا ياعمى •

يسألها متلطفا • كيف حال أخيك ؟ ولماذا لم يصحبك ؟

ثم يتنبه ويستدير ناحية أخته فيسألها : الواقع أن الخطوة كان يجب أن نبدأ بها نحن •

مها : بسذاجة : تصور ياعمى : ماما قالت لى : ان بابا لم يكن يتحدث عنك الا قليلا حتى انها نسيت بأن لنا عما •

العم : معها حق ·· كل الحق، فالبعيد عن العين بعيد عن القلب، لقد سافرت يا ابنتى الى الخارج للترفيه (ثم يضحك بسخرية) فحلا لى أن أمضى بقية عمرى هناك الا أن الظروف لم تساعدنى ، وهأنذا أغير مجرى حياتى للمرة الثانية ومن يدرى ما سيأتى به الغد ؟

مها ، بانطلاق : ما دمت معنا وبين أهلك فلن نشعرك بيأس أبدا ·

يتناول يدها بين يديه بحنان : شكرا ·· شكرا يا ابنتى .

تسأل مها : كيف حال جدتى ؟

دلال بعظمة : فى خير حال ·

مها : كيف ذلك ؟ لقد كانت متوعكة كما أخبرتنى منذ أيام ، الحمد لله انها تحسنت · اذن لماذا لم تأت لتسلم على ؟

وفجأة تقوم من على كرسيها وتنظر الى عمها الذى يرمقهـــا بنظرة مشجعة ويأخذ بيدها مع أن (دلال) حذرته بنظرة خفية فلم يسعه الا هز كتفيه ·

يصعدان درجات سلم رخامى ويدخلان حجرة لتشـــاهد مها الجدة جالسة أمام المرآة تتجمل ·

تضحك بصوت حلو وتقول : أهلا (جران) ماما ·

تباغت المرأة فتقول دون أن تعى : ظننتهم معك يا حلوة ·· وتفهم مها كل شىء ·

تمضى بضعة أيام ، ثم تشاهد مها وهى تروح وتجىء فى الشقة تنظم من وضع الأثاث وتجمل الاركان بالورود المزروعة بالحديقة .

يقرع الجرس ، فتهرول مرحبة وتفتح ذراعيها لتستقبل عمها يأخذها بين أحضانه·· ولما يفلتها يشاهد شابا يافعا حلو التقاطيع يبتسم ابتسامة هادئة ويمد يده بوقار قائلا : أهلا ·· شرفت بيتنا ·

بعد دقائق تكتمل واجبات الضيافة ·· صينية فضية عليها أكواب مملوءة بالشربات أما فناجين القهوة البيتى ذات النكهة المميزة فقد دخلت قبلها · ربة الدار ما زالت الألوان القاتمة تحتويها وتميزها ، وعينـــاها النجلاوان الواسعتان تسبران غور كل من تراه وخاصة هـــذا الزائر ··

ريحة الحبيب الغائب الذى لايعود•• تبتسم ابتسامة ناحبة ترعش قسمات وجهها ويزداد اتساع فتحتي أنفها الدقيق، فتسلم•• ويسلم ، يرفع اليها وجها صبوحا شبيها بوجه باش التهمه التراب ، يسألها بصوت خجل : لعلكم بخير ! ودون أن تدرى تتلفت حولها ثم تجيب : ما رأيك أنت يا أخى؟ يغضى ويزداد اضطرابه ، يسمع دقات قلبه تعوى •• لم يتحمل من قبل مسئولية أى شخص وها هى ذى أمامه امرأة تعدت الثلاثين فى أوج أنوثتها ورائع نضجها •• ثكلى تتحمل آلام عزلتها ووحدتها وترملها !

ما الذى يشده نحوها : صلة القرابة أم ظروف الحزن والـكآبة ؟ ثم تأملها ثانية وكأنه تجاهل ما حولها •• تخيلها فى أردية زاهية وتمشيطة شعر حديثة • واذابه يشاهد صورة أخته دلال •• سرعان ما يغير ما بذهنه، ويرتد الى التى أمامه ثم يتنبه الى سؤالها •• وهو اجابة لسؤاله : انهـــا تناديه بيا أخى •• لا •• لست بأخيك فأنت لست بدلال ، وأنا غير جدير بالأخوة ، وسرعان ما يجيبها : يا هانم أحببت ولديك اللذين هما كأبنائى •• عدينى من اليوم بمثابة •••

عائشة : كم مضى على فراقكما أنت والمرحوم ؟

حسن : سنوات طويلة كنا نبدد وحشتها بالمراسلات ، واذا بى (أنا الكسول) أبطىء فى الكتابة حتى عدمت تقريبا أخبارى ، مرت على تجارب مريرة حجزت بينى وبين من أحببتهم ••أما صدمة فقده فقد جرت علىالكثير، أريد أن أستغفر •• فهل تتكرمين على ولا تحرمينى زيارتكم ؟

عائشة : البيت بيتك •• ومحمد ومها طوع أمرك •

يجلس محمد فى ركن الصالة يفرك يديه بعصبية ثم يسأل أمه : ما رأيك • فى عمى وعمتى ؟

تجيبه بابتسامة واسعة : ماذا تعنى ياحبيبى ؟

محمد بقلق: هؤلاء الناس•• أحس بأننا لسنا منهم أرجوك افهمينى•• عمتى نموذج يقززنى •• شاهدتها أكثر من مرة فى الخارج ، عمى أحسنهم تقريبا لولا •••

عائشة باهتمام : لولا ماذا ؟

محمد : ليس هو بالرجل الذى أتمنى أن أكونه ! انه يرضى بالمقسوم تماما كنساء زمانكم اللائى يمثلن الحريم ، رقته وتهذيبه يضيفان عليه الكثير من •• لا أكاد أقدر على البوح !

تضحك أمه ضحكة عالية ثم تستحثه : هيه هات ما عندك يامحمد !

محمد : يخيل لى أنه يتمتع بسبعين فى المائة من الأنوثة !

عائشة : يانهارك أسود !

محمد (جادا) : اسمعى ياأمى ، فى نفسى ، فى كيانى شىء بل أشياء تريد أن تنطلق ، شعبنا يعيش كالدواب ، أنت مثلا : (افتحى صدرك لى ولا تغضبى) : لماذا تحاولين اخفاء وشمك وكأنك موصومة ؟ لأنك من الريف من الارض الطيبة ؟ : الفلاحون (قبل ثورة ١٩٥٢) يعـزقون ويبـذلون ويمرضون والآخرون يحصدون (على الجاهز) ثم يلوون أعناقهم متقززين من الأيدى الخشنة التى نبشت التراب وصفته من أدرانه حتى يحصل هؤلاء على التبر ! والنتيجة ، ما النتيجة ؟ هذه دادة سيدة تنهكها الأمراض أولها البلهارسيا التى تحيلها الى جثة صفراء متحركة.

أريد أن أقول : اننى مأزوم .. حانق ، أريد أن أسـوى بين هؤلاء وهؤلاء . عائشة باستخفاف : أنت ؟

محمد بحماس : نعم أنا ، أنا وغيرى ، من جيلنا ، مها أختى أحيـانا تكون وقحة لكنها لاتجبن عن ابداء رأيها .

عائشة : اسمع يا محمد ، نحن شعب طيب مكافح .

محمد : مكافح ؟

عائشة : نعم ، لقد عاصرت ثورة سنة ١٩١٩ أتعلم ؟ حينمـا كنت هناك فى سراى فريد باشا ، كانت تجىء سيدة أنيقة وتتحدث مع سيدة الدار وتحدد معها ميعادا . لتسير النساء مواكب ، مواكب ، كنـا نرتدى (الحبرة السوداء) والبرقع الابيض ثم نحمل الاعلام وتطوف جموعنـا بالشوارع هاتفات «يحيا الوطن» حتى نصل الى بيت الزعيم سعد زغلول، فيطل علينا من الشرفة الفسيحة وجه لسيدة سمحة القسمات تبادلنا التحية وكلمات الشكر ، أتعرف من هى ؟ انها أم المصريين ، ان أمك الآن التى تحدثك كان لها شرف التطلع الى هذه السيدة الجليلة ، بل لقد حييتها بيدى هذه التى لامست يدها .

وتأخذها حرارة السرد فيتدفق حديثها وتقول : مرة حجزنا الانجليز ونحن هناك عند بيت سعد زغلول ، افترشنا الأرض أو بتعبير أدق الأرصفة حتى غابت الشمس ! أذكر فى مرة من مرات ذهابنا الى بيت أم المصريين أننا كنا نوقع بأسمائنا واللاتى لايعرفن منا الـــكتابة كن يبصمن فى

أوراق تبعث بالبريد الى انجلترا بلد أعدائنا المغتصبين للمناداة بالمطالب الوطنية التى أولها ٠٠ الجلاء ٠

محمد وهو شبه مخدر : لماذا لم تطلعينى من قبل ؟ ماذا أقول عنك يا أمى ؟ ماذا أقول ؟

عائشة : كلنا يا محمد فى داخلنا رغبات مستعرة ، المثقفون منـــا وأنصاف المثقفين حتى الجهلاء نريد التحرر والاستقلال تصـــور (ولا أقول لك بلاش)

محمد : وحياة النبى ٠٠ احكى ٠

عائشة : هل تتخيل أن الفنانات أو بالاحرى (العوالم) اللائى كن يقمن فى شارع محمد على كن يخرجن فى عربات حنطور هاتفات (بطريقتهن الخاصة) يطالبن بالاستقلال ٠

محمد : طريقتهن الخاصة ؟ كيف ؟

عائشة بمرح : كن ينشدن بأعلى حناجرهن (والصـــاجات) أرجوك اننى لاأهزل ٠٠ أريد أن أقول كل طائفة ٠٠ بطريقتها ٠٠ بلغتها تعبر عن رغبتها فى الخلاص ولا تظن أنهؤلاء الفنانات كن يثرن الضحك أو السخرية، بل على العكس فانهن يشرن بطريق خفى أن لهن جوانبهن النقية المخلصة التى لاترضى بالعبودية ٠

أستطيع أنأ قول اننى كنت فى أيامها من عداد انصاف المثقفات لكننى كنت أكره جدا الانجليز وأشبه أى شخص مغتصـــب بهم حتى اننى (ثم رجعت بها الذكرى الىعادل الفظ الفليظ) حتى اننى عبرتعن مقتىلأحد الاشخاص بأن كرهى له بلغ حدا كبيرا كاد يتجاوز بغضى للانجليز ٠

محمد : لكن ٠٠ الى متى هذا الذل ؟

عائشة وفى صوتها رنة الامل : حتى تتفاقم درجة السخونة وتبلغ حد الغليان ، وهنا لابد أن يحدث الانفجار ٠

محمد (وقد انتقل الى ناحية أخرى فى حديثه) عمى ، هل نشجعه على زيارتنا ؟ ما رأيك أنت ؟

عائشة بحنان : ما شعورك نحوه ؟

محمد : مشاعر غريبة متباينة : صلة الدم لانستطيع أن ننكرها ، لكن نظراته لم تعجبنى ٠

عائشة (وقد أصيبت بغباء حاد لأول مرة) ماذا تعنى ؟

محمد وهو يقوم من على كرسيه : لا شيء ، مشاعر جياشة تجتاحنى تماما مثل المشاعر التى تغمرنى من ناحية بلدى هل فهمت شيئا ؟

عائشة : أبدا يابنى .

محمد : أحسن .

يطرق بابهم فى يوم ما .. انه عريس لدادة سيدة ، تأخر أكثر من عشر سنوات لكنه النصيب كما تقول العروسة .

تعلق مها على ذلك متهكمة وهى تهمس لأمهـــا ، والله عال ! بعد ما شاب ودوه الكتاب ! لقد أصبحت دادة « جلد على عظم » .

تتنهد عائشة وهى تقول : وماله يابنتى من ناحيتى أنا كنت أريد لها الزواج من زمن ، لقد رفضت هذه المرأة الطيبة لتحيينا نحن بأنفاسهـا وعرقها وجهدها .. الله يباركها ، وينير لها طريقا جديدا .. فقط .. أتمنى أن تكون سنوات صبرها وانتظارها تمهيدا لحياة سعيدة موفقة .

تتأمل مها أمها بانبهار وتقول : أجمل ما فيك ياأمى حديثك .. انه ساحر . هل كان أبى يتمتع بهذه الموهبة ؟

عائشة وهى سادرة : لم يكن زوجى وحبيبى ، بل كان أستاذى ، والآن يا حلوة ، دادة ستسـافر الى البلدة ، وأجازة الصيف على الأبواب ألم يحن الوقت كى تتعلمى الطهو ؟

مها وهى تقفز خارجة من الحجرة : بيه ! اننا لن ننتهى من المواعظ ! .. لقد نموت والعرسان يكثر عددهم فى كل عام يمر ، وخيبتك ثقيلة ، ونعمات وفوزية أشطر ، وأنصح منك !

أرجوك يا ماما دعينى فى حالى أنا ما صدقت أن الاســـتذكار انتهى فهل تريدين اذلالى بالطهو ؟ ثم (تقززت ملامحها ، وفجأة تتلفت ناحية أمها وتقول بتكبر . لو كنا ... لو كنت ...

تقاطعها أمها بهدوء : أعرف ما تريدين قوله ، لو كنت هناك معهم..مع عمتك وجدتك لاستخدمت أصعابك فقط فى صقلها وتهذيبها وتلوينها .. الأيام ستثبت لك الكثير .

مها بتأفف : بيه رجعنا تانى للمواعظ !

تجلس عائشة على الكنبة المريحة ٠٠ رفيقتها ٠٠وتسند رأسها الحزين بكفها وتستعيد شريطا طويلا متقطعا لما أصابها من زمن ٠٠ وتتركز الذكرى فى نواح معينة ، لقد فقدت أمها وأباها ٠٠ مشاعرها كانت تحن للأم ،أدركت ذلك تماما حينما كانت تلمح الحاجة حسنية وهى تهدهد ابنتها سيدة وتجلسها على حجرها وتطعمها لقيماتها (الطعمة) بأناملها الفلاحى الحانية، ثم « عقيلة هانم » التى ترنو لابنتها نبيله بوله تتعشقها وتحنو عليها ولا تبدو رقتها أو ليونتها الا مع ابنائها ٠

ان عائشة اليوم أم تجتاحها كل المشاعر ، مشاعر الأم المتكاملة ومشاعر الابنة المحرومة ، كل ذلك يتفاقم ٠٠ يستعر فى نفسها ، فى داخلها، ليخرج أتونا من حب لا من لهب ٠٠ من بذل لا من تهديم ٠

انها تشاهد ابنتها وميوعتها ودلالها فتقبل وتقول : من يدرى ياحبيبتى هل سأعيش لك الى مدى طويل ؟ كيف أثق فى الأيام ؟ لقد فارقنى زوجى وهو فى عنفوان رجولته وصحته ! كيف أعهد للزمن فى تنشئة ولدى ؟

أما مشاعر الأنوثة والجنس فكيف ننكرها ؟ اننا نخفيها لكننا لانغفلها ، لقد سمت بمشاعرها ، خزنتها لتهبها فهل نجحت ؟ نعم ، لقد تخطت مراحل الخطورة لولا بعض الوخزات الصغيرة التى كانت تنتابها من حين الى حين فى فترات متباعدة ٠

مضت فترة ليست بالقصيرة منذ رحيل دادة سيدة ٠٠ وعائشة تطوف بالحجرات كالفراشة ، تتفنن فى صنع الأطباق اللذيذة (البيتى) ليأكل منها محمد وتتذوقها مها ثم تمصمص بشفتيها وتقول تداعب أمها : انك سيدة بيت ممتازة لكن ٠٠٠ (ثم تشير بأصبعها) لاتحاولى اقناعى بأن أرث منك هذه الموهبة ، وبالمناسبة يا أمى لقد دعوت عمى (حسن) للعشاء ٠

يخبط محمد بالسكين على المائدة وتبرق عيناه ثم يؤنب أخته قائلا : قلت لك ألف مرة : لاتتصرفى دون اذن أمى أو اذنى أتفهمين ؟ انك أصغرنا عقلا وسنا ، ثم يلتفت الى امه هل يرضيك هذا التدليل ؟ انها وقحة وجريئة ٠

ثم يقوم من على كرسيه ليمسك بطرف أذنها يعركه حتى يتلون فيصير أحمر كالدم تقوم مها غاضبة من على المائدة وهى تبكى ، تخرج وراءها أمها لتهدئتها٠٠ يهمهم محمد صاخبا: دلع بنات وأم حنون أكثر مما يجب ٠

تهمس مها لأمها مساء ، لن أوافق على ظهورك الليلة الا اذا ارتديت هذا الثوب ، تنظر عائشـــة الى الثوب الأرجوانى وتصرخ : هل جننت يامها ؟

ترنو اليها مها بمكر طفلى وتبتسم ثم تتركها بمفردها ٠

تتأمل عائشة خيالها فى المرآة وتتفحصه ، تبدأ برأسها ٠ وأكتافها العاجية المستديرة ثم خصرها النحيل المحدد ثم ساقيها الملفوفتين فى افتتان وفجأة وبعد أن تملأ عيونها من محاسنها تجزع !

ترتد الى لاشىء لقد تأملت نفسها من قبل فى ظروف معينة تتذكرها الآن : منها عندما فاجأها شيطان يدعى (عادل) استهوته محاسنها فتركته يتلظى بسعير الحرمان ، ومرة أخرى عندما كانت عروسا حلوة براقة والآن انها لاتزال تختزن مدخراتها لكن لمن ؟ ٠٠ لمن ؟ لعله الدافع الذى أجبرها على أن تتجاهل ماوهبته لها الطبيعــة بسخاء ، تتــأمل ثوبها الارجوانى المكشوف والذى كانت لاترتديه الا لنصفها الحلال ٠ وتتصارع نفسها ٠

انها ليست فقط مليحة ، لكنها اكتسبت النضج . النضج الذهنى والبدنى ولأنها تعرف تماما ثروتها خدعت نفسها أوهمتها أنها أصبحت فى عداد الملابس المخزونة التى تفوح منها روائح (النفتالين) لا روائح الشباب والصبا ٠

لم تكن تدرى أن الاعوام التى تخطتها وكادت تقترب بها من العــام السادس والثلاثين زادت من خطورتها تلاحقت أنفاسها وارتعش بدنهـــا وبأناملها الرقيقة شدت ثوبا رماديا من على (شماعته) وقورا ابن حلال وقالت من بين شفتيها : سأغيرك بالأسود ارضاء لها !

فى الصالة الفسيحة تقبع مائدة للطعام مستطيلة (مازال بهـــا الرمق) عليها صحاف لطيفة متوسطة الثراء أما طعامها فهو لذيذ شهى ، تترأس هى المائدة وأمامها فى اتجاهها من الناحية الأخرى (عمو حسن) الذى تدلله مها بقولها (زارع بصل) أما محمد فهو بجانب أمه ومهـــا بجانب عمها ٠

العم ينهل من محاسن المرأة الناضجة ومحمد يراقب أمه ٠ ومها تتأمل عمها ٠

تعتذر المضيفة للضيف بقولها : ليس لدينـــا خادم أو خادمة فقد رحلت عنا سيدة الطيبة ٠

حسن مبهورا : هل كل هذا من صنع يديك ؟

هى بتواضع : انه شيء لايذكر بجانب تشريفك لنا ٠

حسن محولا حديثه الى مها : ما رأيك يا مها ؟ هل تساعدين ماما ؟

محمد منتهزا الفرصة : نعم ، انها تجيد اطلاق النـــكات ، أحدث النكات !

حسن مقهقها : على أية حال ، هى أيضا رسالة لايستهان بها ٠

محمد (جادا) : ماما ضعيفة ، ولا يغرنك تظاهرها بالنشاط ، لقد مرضت الشهر المـــاضى ، ولازمت الفراش فترة طويلة ، عادها الطبيب ونصحها بالراحة ، لكن هذه (ثم أشار الى أختـه ولهيب من نار يطل من عينيه) لا تحرك ساكنا ولا تغزو قلبها الرحمة ٠

مها محتجة : أو تريد أن تفهم (أنكل) ان لك قلبا رقيقـــا عطوفا أكثر منى ؟

محمد : برغم أنفك ، تصور ياعمى أننى أساعد ماما فى المطبخ ! بل وأجيد طهو بعض الاصناف ! كل ذلك من أجلها أو ليســت جديرة بأن نخفف عنها ؟

عائشة محاولة تغيير دفة الحديث : كلاهما يبالغ ياحسن بك والآن مارأيك فى هذا الصنف من الحلوى ؟

أقدام حسن تطأ أرض الطابق كثيرا ، وفى الفترة الأخيرة يجيء فى أوقات تكون مها فى الخارج وكذا محمد ٠

أحست عائشة ببوادر الخطر وبخاصة عندما لمست فى صوت حسن نبرات مرعوشة ودفئا محسوسا فى يده ، عندما يتعمد أن يسلم عليها ويضغط كفها ٠

وفى احدى الأمسيات فى الشرفة وضوء القمر يتسلل بحذر ٠٠ ونور من الداخل يضفى بهاء مستحبا يقترح عليها أن يتنسما هواء المساء المعطر بزهور الخريف ، يبدو عليها الارتباك وتجد نفسها تسير كالمســحورة الى الشرفة وتمد يدها مشيرة الى الكرسى (الاسيوطى) ذى الوسائد اللينة ، وتجلس هى قبالته فى كرسى آخر أقل راحة ، ولما تتامل محياه الذى يضاء جانب منه ويغيب الجانب الآخر تتذكر فجأة أن هذا الكرسى كان محببا الى أخيه ، فتقوم مرتبكة دون أن تفكر مليا وتقول بصوت هامس فيه بحة :

ـ كان المرحوم يجلس عليه ٠

يحس هو باحتجاجها الملتوى فتتقلص ملامحه وتعلن أحاسيس الغيرة، يقوم من على الكرسى ثم يذهب ناحيتها ويمسك يدها قائلا بالصوت واللهجة نفسيهما :

ـ أو كان يفضلنى ؟ أما زلت تحبينه ؟

ثم يقرب سحنته منها ويتشمم عطرها الحالم وينهل من ضوء عينيهـا الناعستين ويلمح شفتيها المنفرجين نصف انفراجة ولا يملك نفسه ٠

أحس بحبها يغزوه، يغزو قلبه ووجدانه وجسمه، أما بوادر الغيرة التى اجتاحته فقد ألهبت فيه سعير الرجل المطارد ! فأمسكها من كتفيها ثم انهال على شفتيها تقبيلا ٠٠

وفى أقل من دقائق تفر من أمامه لتدخل الى الصـــالة وفى نورها الساطع ترتد الى الواقع مع دقات قلبها الذى دفنته من زمن ٠٠ ها هو ذا يدق ثانية بعنف باحتجاج مطالبا ببعض حقوقه صارخا ٠٠ مازلت أعيش ٠٠ مازلت أدق !

أما حسن فيحس بما فعله ولا يجد فيه غضاضة ٠٠ يمشى فى ركابها ويناديها : عائشة ٠

تغضى وراسها الى الارض ٠٠ ينظر الى أقدامها ليناديها ثانيا ٠٠ ثم يكرر النداء ، واذا بها تبكى ، يذهب ناحيتها ويمسك بكلتا يديها وباصابعـــه يرفع ذقنها الدقيق مبتسما يهدهدها ويقول : ماذا أصابك ياحبيبتى ؟

أخيرا تجد صوتها فتقول : كيف تجرؤ ؟

فى قومة واحدة يقف مستويا شامخا ويسألها : لو لم أحس بتبادل مشاعرنا ما تجرأت !

ترفع وجهها ، وجها مخضلا بالدموع ٠٠ دموع اليأس ٠٠ الفرح ٠٠ الحب المباغت ٠٠ دموع الندم ٠

يتأملها ثم يقول فى نفسه : عرفت الكثيرات من كل لون ، من كل بلد ٠ من كل عمر ، لا أكاد أرى امرأة حقيقية الا هذه ٠٠ انها من أبحث عنها ، لكن أخى ويهمس لنفسه : هل هو الذى يقف حائلا بيننا ؟

واذا بالجرس يدق ، ويدخل محمد ، قائلا : أهلا ٠٠ عمى ٠٠

استطاعت عائشة فى فترة من فترات انفرادها بنفسها أن تواجه ما حدث ، انها امرأة مليحة ٠٠ وقد حدث تجاذب بينها وبين حسن ٠

حسن يصغر (حسين) بكثير ٠٠ وفى عينيه رعونة ، وحيوية ٠ علاقتها بحسين كانت تغمرها بمشاعر الابنة نحو أبيها والصديقة ازاء صديقهـــا والأكثر من ذلك الثقة والتقدير ، كل مقـــومات الزواج تآلفت واتحدت فنجح زواجها نجاحا باهرا ٠٠ أما حسن ففيه شيء يخيفها ٠٠ ان مايشدها اليه هو أنه رجل وأنها امرأة ٠

حقيقة انه رقيق ناعم ، جازاك الله يا محمد ٠٠ انهـــا الآن تتذكر تعليقه ، ولكن ٠٠ ولكنها لاتستطيع أن تمنحه كل ثقتها ٠٠ من ناحية مها مضمونة تكاد تجزم بأنها ستبارك زواجهما ٠٠ يالله زواجهما ؟ وهل عرض عليها الزواج ؟ لكنها من الفئة التى لايمكن الارتباط بها الا بمواثيق الزواج٠

وهل اراد حسن أن يشدها بعهد بينهما ؟ لعلها تسبق الحوادث على أية حال ٠٠ أمر محمد ليس بالهين وبالرغم من أنه يفتقد (الرجل) فى أهل ابيه فهو ــ لا يرحب ــ ترحيبا حارا به ٠٠ انها شبكة ٠

الغريب والجميل أيضا أن (حسن) لم ينقطع عن الزيارة بعدما حدث بينهما أخيرا فى الشرفة ٠

لكن هذه الزيارة بالذات لا تستطيع أن تنساها فقد كان ابنها معها وتشعبت الأحاديث واتخذت نواحى متعددة كانت تلمح فى عينى محمد معانى معينة استطاعت أن تلم ببعضها عندما انبرى لعمه قائلا : اتسمح لى بسؤال ؟ ويبتسم حسن ابتسامة رائقة ويجيب : ان ذلك يسعدنى كثيرا٠

يتململ محمد فى كرسيه ثم يقول : كيف تقضى يومك ؟

يرفع حسن حاجبيه متعجبا ويقول : وكيف تقضيه انت ؟

محمد : (بثبات) كما يجب أن يقضى ، فى فترة الدراسه اذهب للمدرسة ، وفى البيت استذكر ، وفى فترات الراحـــة ارتاح ، ولعـــل الراحة بالنسبة لى تكون فى الاطلاع على كتب ابى الرائعة بعضها فى العلوم والبعض الآخر يشمل الآداب والفنون والجغرافيا والتاريخ ، وعلى ذكر التاريخ ما رأيك فى السياسية ؟

تتيقن عائشـــة أن السؤال الأخير كان الطعم ، ٠ وعندئذ تتيقظ حواسها لتراقب المناورة ٠

يستطرد محمد فى حديثه قائلا قبل أن يجيب عمه عن سؤاله ٠ أرأيت ؟ ان هنـــاك اختلافا واضـــحا بين وقتى ووقتك ، لقد انتهيت

أنت ـ من الدراسة والتحصيل من زمن فالتمس لى عذرا لسؤالى الذى لم أجد له جوابا حتى الآن .

لم يكن حسن غبيا ، لكنه كان يمثل فئة بعض الرجال فى ذلك الحين وهو حوالى سنة ١٩٣٧ وقد كان رده طبيعيا عندما قال : أنتم تجرون وتلهثون لتحصلوا على لقمة العيش فى صورة وظيفة ، اما أنا (ثم قبل ظهر يده وباطنها) والحمد لله فى بحبوحة من العيش . ايراد شهرى ثابت فلم (وجع الدماغ)؟

تبدو على سيماء محمد بوادر رجولة مبكرة فيبتسم ثم يقول : الا تشعر ياعمى ببعض الملل وانت تروح وتجىء فى بيتك دون أن تعمل ؟

حسن : من قال اننى أروح واجىء فى البيت ؟ اننى أروح واجىء فى النادى ؟

محمد : آه ! وماذا تعمل ؟

حسن وقد بدأ يقلق : تعمل ، تعمل ، لماذا أعمل ؟ ولمن ؟

محمد : (بصوت عال) تعمل لأنك انسان ، ولمن ؟ لبلدك .. لى ولغيرى ، كلنا نعمل ، نحن نأكل وننام ونعمل ، لا نستطيع أن نأكل فقط وأن ننام فقط وأن نعمل فقط والا فما معنى أن نعيش ؟ ولماذا نعيش؟

لكل عمل لذته وبهجته ومتاعبه التى تهون فى سبيل الهدف الذى نسعى اليه . أنا أحب بلدى ، ناسى ، وطنى ، أهلى ، سألتحق بكلية الحقوق لأدافع عمن لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم .

حسن : (بهدوء) انهـا ثورة الشباب سرعان ماتنطفىء ، . انك تحدثنى الآن بملء حريتك . لكنك لاتستطيع أن تجاهر بذلك فى الشارع .

محمد : ولماذا ؟

حسن لأننا محكومون مكبلون بالاغلال وسنبقى هكذا . (١)

محمد : الشطر الأول أوافقك عليه ، محكومون مكبلون بالأغلال ، هذا حق .. أما أن نبقى هكذا فمما لا أوافقك عليه .

حسن : ماذا فى يدنا أن نصنعه ؟

---

(١) بالطبع هذا الحوار قبل ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ اذ كان فى أواخر العقد الرابع من القرن العشرين ..

محمد : ان نحتج ·· ان نثور ·· ان نتكتل ·

حسن (بسخرية) : كان غيرك اشطر ، ثورة عرابى كفاح مصطفى كامل ·· مثلا ·· ماذا كان مصيرهما ؟

ثم ربت على كتف محمد مبتسما : الم اقل لك . انه حماس شباب سرعان ما يفتر !

محمد : (وقد أصابته قشعريرة موجهــا كلامه لأمه) طالما هؤلاء (وأشار ناحيــة عمــه) يرضون بالذل والمهــانة ويوهمون انفسهم بأن المسألة « مسألة قضاء وقدر » ·· فلن نخرج أبدا من الأوحال ·

سيدى ·· نحن نحارب جبهتين : جبهة الاستعمار ، وجبهة الطبقة الحاكمة التى تفرق بين فئات وفئات ووالله انالجبهة الداخلية (لمصيبتها أكبر وافدح) يؤسفنى أنك تتحدث بلغة لا .. ولن أفهمها . لست باخ ابى !

حسن يسبل أجفانه ثم يفتحهــا كمن يستيقظ من نومه ويرشق ابن اخيه الذى مثل امامه العزة والكرامة المجروحة ويصوب اليه سؤالا يتخيله يـكاد يصيب الهــدف ، يصحب ذلك همس كانه حفيف أوراق الشجر التى حركها شيء ما !

ـ ماالذى فى راسك ؟ أعنى ما الذى تتخيله تقريبا ؟

يقول محمد متخيلا نفسه في موقف مع أخته الرعناء بعد أن عفــا عنها وهى تهذر : قناة السويس اتسمع عنها ؟ ثم يتراجع عن سـؤاله بعد أن لمح نظرة محذرة من أمه : من الذى حفرها ؟ من الذى عرق وتعب ولهث وصام ولم يأخــذ أجرا عنها الا فقــدان حيــاته : الانجليز ، ام الفرنسيون ، أم أجدادك النبلاء ذوو الدم الازرق ؟ شيء آخر لقناه فى دراستنا ، ان بلادنا زراعية فقط ! ليس هذا فحسب ، بل قيل لنا انهــا زراعية (من تحت الضرس) تمــاما كمن يلقى الى كلبه قطعــة من اللحم الشهى الملبســة بالعظم ليس فيها مايعيبهــا الا أنها عفنة ، ويجب على الكلب بعد ذلك لا أن يلعق البقايا فقط بل يلعق حذاء سيده ! لأنه تعطف وتنزل وانحنى ليقذف باللحم العفن من بين أصابعه الصنوبرية المعطرة ·· هل تخيلت مرة أنه من الممكن ولن أقول من الممكن جدا أن تصبح بلدك بلدا صناعيا فى يوم ما ؟

انت الذى تباهى باسفارك للخارج وتقول : ماأجمل لندن بضبابها ودخان مصانعها ؟ ستكون لدينا مصانع دون ضباب .

عمى «قالها بتأفف ، كمن لايستطيع الفرار من لون دمه» : هـذه التمنيات ستتحقق ولكن ـ قطعا ـ ليس على يد امثالك !

وهنا خرج صوت العم الساخر : نعم ، امثالكم انتم ايها الشباب .

اشاح محمد بوجهه الى لاشىء كأنه يناجى طيفا فى عالم الخيال : اتخيلك الآن فى طيات السحاب وانت فتى مشبوب الأحلام نقى الفؤاد صلب الارادة مسلح بالايمان تخطر الينا فى يوم ما لتقدم لنا ما عجز عنه، الاولون ، اننى لا ولن افقد املى ابدا .

عائشة وقد احست بأن دورها يقتضيها أن تتكلم : محمد ، دع عمك فى حاله . وان كنت مؤمنا بما تقوله فابق على ايمانك ودع غيرك يعتنق ما يعتنق .

حسن وقد استرد كل أعصابه : فى الحقيقة ياعائشة هانم أنا لا احب التحدث كثيرا فى السياسة ، ما رايكم فى أن نذهب الى سينما (رويال) بها فيلم لطيف لجريتا جاربو ؟

ويهز محمد كتفيه باستهزاء علامة الرفض .

فيقترب منه عمه قائلا : اسمع يا محمد ، أفضل أن تتناول كتابا من مكتبة ابيك . وليكن فى السياسة .

يتحول محمد الى أمه قائلا : ماما ، لن تذهبى الليلة الى السينما.

يطرق حسن باب عائشة ، بعد أيام طويلة منذ تلك المشاحنة الهادئة من طرف وصاخبة من طرف آخر ، تتأمله عائشة وتراه فى ثوب جديد، وتجد أن (حسين) هو حسين وليس بحسن وأن (حسن) هو حسن وليس بحسين مع أن امهما واحدة ، . يخطو خطوة ، . ويتخلف خطوات وتعرف انه تعمد المجىء صباحا لأن ولديها فى دراستهما ، وهى نفسها لا تعرف ما بها . ان قلبها يخفق لمرآه .

وتفتقده كثيرا حين يتغيب ، لكنه اذا ما حادث ابنها فكأنها تقارن بين حسن و حسين وشتان ما بين الاثنين !

يبتدرها بقوله : عائشة لعلك تفهمين ما النهاية ؟

وترد بابتسامة وئيدة : ماذا تريد ياصديقى ؟

حسن : اخى ، وصديقى اسمان لطيفان ، لكن الا تستطيعين ان تنادينى بياحبيبى !

عائشة : ...

يقترب منها ويزيح خصلة من شعرها تغطى أعلى جبهتها ثم يتأملها مليا .

عائشة وبهدوء تظهر كل جبهتها ثم تسأله : ما بك ؟

تلمع عيناه ويقول : لا شيء ما الذى دفعك لأن تشوهى جبهتك هكذا ؟

هى بصوت طبيعى : شقاوة اطفال . أطفال القرية .

حسن : آه ·· هل ·· هل مكثت طويلا فى القرية ؟

عائشة : حوالى ثمانى السنوات .

حسن متأففا (مع أنه جاهد كى يخفى ما به) وهل كنت تخضبين اقدامك ويديك (بالحناء) ؟

تقوم من على كرسيها متهكمة ثم تزوم : وتخرج صوتا (كالذى نخيف به الأطفال) وتفرد كفها لتقربه من وجهه تحاول ارهابه ، أو تذكيره بالذى يريد أن يفر منه ·· دون أن يعى ·· يقفز الى الخلف مرتاعا ·

وهنا تتبدل الأوضاع وتتخذ هى صورة المرأة السيدة الأبية ، فتقف شامخة . مرفوعة الرأس ، وأخيرا تبتسم ثم تسأله : ماذا تقترح يا حسن بك ؟

يغمره خجل ويحس بأنه اشتط ، فيقول محاولا تبرير تصرفه : كانت لنا دادة ونحن اطفال صغار لها وشم عيروها به ، فاستعملت (ماء النار) لازالته ونجحت صدقينى لم يبق له أثر اطلاقا الا للفاحص المدقق لعله يخمن أن موضعه كان جرحا ثم اندمل.

تشير اليه بيدها قائلة : ما حديثك الذى بدأت به منذ أن جئت هذا الصباح ؟ هل لك أن تتمه ؟ يستيقظ ، يفيق ثم يقول : بعد ان تآلفنا . احببت أن اتخذك زوجة ورفيقة وولدا أخى هما ولداى لعلك حدست ؟

هى : تستحثه بكبرياء : وماذا بعد ؟

حسن : فقط ما أشرت عليك به ٠

هى : وهو ؟

حسن : هذا الوشم الذى لا معنى له ٠

هى : واذا ابقيت عليه ٠

حسن : ولماذا ؟

هى : قلت لك اذا فرض وعن لى أن أتمسك به دون ابداء أسباب أو أعذار فماذا سيكون موقفك منى ؟ ولن أسألك : هل قيمتى فى مظهرى لأنك لن تفهم السؤال ٠

حسن : أخشى أن أقول ٠

هى : (متحمسة) ولماذا تخشى ؟ دعنى أرد بدلا عنك فالشيء الوحيد الذى لم يتخل عنى هو شجاعتى ، انك ترفض اليس كذلك ؟ اذن دعنى أطمئنك . ان الرفض هو الشيء الوحيد الذى اتفقنا عليه فليس فيك مايعوضنى عما فاتنى واننى أرحب بك جدا كعم لولدى فقط ٠

تمضى سنوات لعلها طويلة أو قصيرة يتخرج محمد من كلية الحقوق ويحاول أن يفتح مكتبا يديره للمحاماة انه حاليا ٠٠ يعمل مع أحد المحامين المرموقين فما زالت هناك بضعة أشهر يستطيع بعدها أن يفتح مكتبا خاصا، مها يزداد جمالها وتألقها وحيويتها أما عدم مبالاتها فهو شيء واضح ٠ وخاصة فى معاملتها مع أمها ٠

عائشة تجتاز مرحلة دقيقة فهى قد تعدت الأربعين ٠٠ تنتابها أزمات مرضية من الحين للحين ، تحاول ايهام نفسها انها نوبات عرضية ربما تزول ، الطبيب يعودها ـ بعد الحاح من ابنها . يطمئنها وهو شيء طبيعى مهما كانت الحالة ٠

مها لم تنته بعد من مرحلة التحصيل ٠٠ بعض النوادى ترتادها مع فتيات من أترابها معظمهن تعرفت به فى سراى عمتها ٠

هى لم تنقطع قط عن زيارة بيت أهل أبيها طيلة تلك السنوات ، وتجالس عمها كثيرا وجدتها وأحيانا تسائل نفسها : لماذا لا يزورنا عمى

كثيرا كدابه من قبل ؟ ولماذا لا تحاول أمي من ناحيتها ان تشجعه ؟ لقد كان يخيل اليها فى فترة معينة أنه سيحدث بينهما شيء !

حقيقة ان الجدة والعمة لاتبادلانها الزيارة ولكن وماله ؟ أليست هى الصغيرة ومن واجبات الصغار الا يدققن كثيرا فى تصرفات من هم أكبر منهم سنا ؟

أشد ما تكرهه مها ان تعمل بالبيت ، ان ملابسها تتسخ وأصابعها تصاب بالقاذورات ثم رائحة البصل .. ياه ! وأخوها لايفتأ يعكر عليها مزاجها ويتكهن لها بسواد المستقبل ، أما أمها ، أمها هذه الكائنة العجيبة. انها مثالية أكثر مما يجب ووقور أكثر مما يجب ، ومليحة بكبرياء أكثر مما يجب ، لكنها ـ والحق يقال ـ كأم أكثر مما يجب .. تسامحها دائما وتعفيها من الاعمال حتى الخفيفة منها دائما وتقابل رعونتها وحماقتها بابتسامة قلبية دائما .

لكنها أحيانا تهمس اليها وقلبها يتوجع . ألا تحبينني يا مها ؟

زياراتك وتوددك لأهل أبيك ليسا عيبا ولكن لماذا لا تغدقين على ـ ولو بالفتات ـ أو لست أمك ؟ هل قصرت فى حقك ؟ فى أزمات مرضى ربما تتألمين قليلا ، ولكن الرحمة ، الحنان لا أشاهدهما فى عينيك لماذا ؟ لقد كان أبوك عطوفا رقيق القلب !

عائشة ملازمة الفراش، وجهها شاحب لاتظهر منه الا عينان واسعتان مكحلتان (ربانى) شفتاها لا لون لهما . تجمع شعرها الفاحم الذى لونته بعض الخيوط البيضاء فى منديل حريرى كبير يكاد يصل الى منتصف ضفائرها ، ومنذ ذلك اليوم أزالت . قصة شعرها ـ وبذا وضح نور جبينها الذى يتوسطه ذلك الوشم الأخضر .

محمد يجلس بجانب سريرها يمسك يدها البضة الناعمة ويدلك أصابعها ويهمس لها : ألم تحنى يا أمى الى يدى اللتين أدلك بهما ظهرك ؟

تبتسم المرأة الطيبة بحنان وترد : لم يعد فى نفس يا محمد ، يخيل لى أنك لو لامستنى فسينقسم ظهرى أحس به كلوح الزجاج المشروخ !

محمد وهو يمسك بوجنتها مداعبا : ويحك من هذا الدلال ـ كلها يومين ـ وتقومين بالسلامة تصولين وتجولين .

هى ضاحكة : المهم يامحمد كيف حال العمل عندكم بالمكتب ؟

محمد : بعض الكتبة مرتشون والاستاذ المحـــامى ذكى وقلمه فى كتابة المذكرات قوى الحجة ، الدنيا يا أمى لا تعجبنى وخاصة الآن بعد أن اندمجت ــ بحكم مهنتى ــ فى خباياها .

عائشة : ألا أخبرتنى يا محمـــد فى آخر مرة ماذا قال لك الطبيب عنى ؟

يتيه محمد فى تأملاته ويستعيد الحديث الذى دار بينـــه وبين الطبيب المعالج الذى أسر اليه ــ فى النهاية ــ أن امه تحتاج ــ كثيرا ــ لراحة تامة والا تجهد ذهنها أكثر مما يجب وهو قد حدس بأنها مصابة بمرض السكر وضغط الدم .

يتنبه أخيرا لسؤال امه فيقول لها : درجات بسيطة فى ضغط الدم ارتفعت وعليك بمراعاة تعاطى الدواء ــ الاقراص ــ والطعام المسلوق والملح القليل . كلهـــا أشياء بسيطة ، هل تصدقين أن زميلا لى مصاب بالمرض نفسه عمره يكاد يقارب عمرى ؟

تمر بعض الليالى . تزداد وطأة المرض على عائشة فى أمسية تنادى بصوت واهن ، تهرول ابنتها اليها وتناولها كوب ماء ومعه بعض الاقراص التى أمر بتعاطيها الطبيب ، ترنو عائشة الى مها بحب كبير تطرف اهداب مها وتلمع فى عينيها بعض قطرات الدموع ، ثم تنسحب من جانبها كالطيف بعد ان تسألها هل تريدين شيئا ؟

تهمس عائشة مناجية نفسها : أفلا بد أن يشتد على المرض نى تحبيننى يا ابنتى ؟

ثم تنظر الى السقف والجدران وتتشمم الهواء وتواصل مناجاتها وكأن شيئا ضخما ثقيلا يضغط على أنفاسها ، ويثقل على صدرها . أحس بالهواء وكأنه دخـــان رمـادى قاتم ، والسقف كأنه يظللنى ظل الفناء ، أما الجدران فتضغط أعضائى وتسورنى كأنها التابوت ، كيف بدأت حياتى ؟ وكيف واصلتها ؟ وكيف سأتمها ؟

أحس بالألم يمزق مفاصلى والحزن يخيم على بصرى وأنفاسى ، لو قيل لى : ان مها فى احتياج الى بريق عينيك لنزعتهما من محجريهما حتى تستضىء وترضى !

أما محمد فماذا أقول ؟ دعواتى تصحبك فى غدوك ورواحك . فى مأكلك وملبسك ، وحزنك ومرحك ، حياتى فداك يامحمد !

لم لا تعجل بى ياربى حتى لاتضيق بى مها ؟ فأسبب لها حزنا هذا الحزن الذى أضيق به وأمقته حينما ألمح بوادره بين عينيها ٠

بودى أن أقوم من فراشى ٠٠ من لى ببعض العافية التى مكنتنى — فى وقت ما من أن أشيد بيتا حبيبا ، لن أذهب الى مها الآن فالمسكينة لم تنم — بعد — الفترة الكافية ، أما محمد فهو مرفؤنا جميعا ٠

تحاول الجلوس فى فراشها وتشعر ببعض الدوار ، وكأن بالحجرة دخانا كثيفا يتجمع على هيئة كتل قطنية تشبه كثيرا الضـــباب ، لكنها تبتسم ابتسامة شاحبة ميتة وتمسك ركبتيها تدلكهما محاولة احياءهما وتمد ساقها اليمنى وتقربها الى الارض — محاولة بذلك — أن تمد ساقها الاخرى ليلحق بها ، تستند الى الحـــائط ثم تمسك — فى الظلام نصف الحالك — ملمس المرآة وتتأمل ملامحها ولا تملك نفسهـــا فتدمع عيناها وتحس بغصة محتجزة ٠٠ تأخذ نفسا طويلا ٠٠ لتطرده وتواصل سيرها المتقطع الوئيد حتى تصل الى باب حجرة ابنها ٠

الباب موارب أيها الحبيب حتى تتسمع صوتى فتهرول ناحيتى ؟

تسير بأقدامها الحافية سيرا كالذى تسيره فى الآحلام وتقترب من فراش ابنها الأول وتجثو عند سريره ٠٠ وتدعو له من قلبها ٠٠ ثم تختم دعاءها وتقول : هل فى استطاعتك يا أغلى الحبايب أن تحمى أختك وترعاها؟!

قرب الفجر ٠٠ ومع شقشقة العصافير وابتداء ظهور النور يسمع صوت جسم ثقيل يرتطم بالأرض ٠

وتتردد فى أنحاء البيت أنفاس فردين فى عمر الزهور !

فهـــرس



الدار القومية للطباعة والنشر

الدار القومية للطباعة والنشر

العدد ١٢٣

الثمن ٢٥

١٩٦٥/٢/١٥